

الدكتور
صابر طعيمة

هَذَا الْقُرْآنُ

قصة الذكر الحكيم
تدوينا وتفكيكا

دار الحياة
بيروت

حقوق الطبع محفوظة

١٣٩٩ - ١٩٧٩

هذا القرآن
قصة الذكر الحكيم
« تدوينا وتفكيرنا »

المقدمة

وسط حاجيات العصر الذي نعيشه ، وفي خضم زحام الحياة اليومية وفي ظل بريق السلعة المادية المتقنة ، وبتأثيراتها العديدة - نشأت قطاعات ضخمة من اجيال الشباب المسلم الممارسين لفنون الحياة المختلفة، نشأت هذه الاجيال في وسط مناخ عام بعيد عن الروح الاسلامي ، كان من اثره ان ثقافتهم الاسلامية لا تكاد تذكر ، فضلا عن خلو عقولهم من الكيفية التي انتهى بها اليهم الذكر الحكيم - تدويناً وحفظاً وتداولاً - منذ تركه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الهيئة التي هو بها عليها للان .

ولما كان علماء المسلمين في مراحل متقدمة تتصل بالاجواد الاسلامية الصحيحة قد خصصوا لكتاب الله تعالى دراسات وعلوم شتى ، تتصل به وتعرف به ، وتحاول التعرف عليه ، وهي في جملتها بمادتها العلمية - المتخصصة - لا تصل الى معظم القطاعات المختلفة من المتعلمين - والثقفين من طلائع الاجيال المتعاقبة ، كما انه لا يقصد امام حجم عطائها الذي يشبه احياناً الرموز والمصطلحات الرياضية .. فانما قد حرصنا على ان تعرف في هذا المختصر بالكيفية التي انتهى بها الذكر الحكيم الينا حتى اليوم ، وحتى تم طبعه وتسجيله بالهيئة والرسم تارة ، او بالصوت والصورة تارة اخرى .

هذا وقد اقتضى منا هذا البحث - الموجز - ان نعرف جيل المثقفين بالوحي الالهي وانواعه ، مع ابراز وتحديد اي نوع من الوحي الالهي للناس كان يتم بتلقي القرآن الكريم من خلاله .

ولما كانت الغالبية من المثقفين مفتونة بما انتهت اليه علوم النفس المعاصر من دراسات تهتم بالبواعث والمؤثرات او بدوافع السلوك ونتائجه ، فاننا قد اولينا المنهج المعاصر في التناول الدراسي عنايتنا لنضع امام جيل الشباب المسلم الخصائص والمقومات التي ينفرد بها المنهج الاسلامي في تناوله قضية الذكر الحكيم .

وقد كان من الطبيعي ان يتناول هذا المختصر بالدراسة والتعريف خصائص ومقومات اللغة العربية ، والتي كانت في علم الله تعالى ومشيته وعاد كلام رب العالمين دون سواها من لغات البشر .

كما ابرزنا في هذه العجالة الالهي والمراحل والاضاع التي مر بها الذكر الحكيم منذ تركه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين ايدي المسلمين على هيتين :

(الاولى) مدوناً في ادوات غير مجموع في مصحف واحد طوال فترة نزول الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟

(الثانية) محفوظاً في القلوب ومتداولاً على الالسة غير مقتصر في ذلك على فئة او جماعة دون الاخرى ، حتى تم نسخه وارساله الى الاقطار الاسلامية .

هذا وارجو الله تعالى ان ينفع بهذه الدراسة جيل الشباب المسلم الذي يريد ان يتعرف على كتاب الله وان يقف على الخواص التي انفرد بها الذكر الحكيم من حيث التدوين والتداول

وارجو الله العلي القدير - ان يغفر ما اكون قد قصدت فيه من غير
علم في حق كتاب الله تعالى ، كما وارجو سبحانه ان يجعل حسن النية في مقصده
تعالى في الميزان يوم القيامة .. انه سبحانه نعم المولى ، وهو على كل شيء
قدير .

هذا وعلى الله قصد السبيل .

دكتور صابر طعيمه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين
الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً »

قرآن كريم
(الاسراء : الآية رقم ٩)

الباب الاول

« الوحي الالهي في القرآن الكريم »

الفصل الاول

أ) هذا القرآن

هو كلام الله تعالى رب العالمين ، نزل به الوحي الالهي (جبريل الامين) على قلب سيد ولد آدم : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليختم به النبوة ويتمم ويكمل به الرسالة الالهية للبشر ، ويخرج به الناس من الظلمات الى النور ، ومن الشرك الى التوحيد ، وليطهر الناس به من جهل الوثنية والتخلف الى عرفان الايمان ونوره .

ومعالم القرآن الكريم في التعريف به من خلال محكم آياته كثيرة وعظيمة ، وتنطق الآيات الكريمة عن بعض مقاصده العظمى في تعريف آياته الكريمة به ، فيقول رب العزة في سورة المائدة في الآيتين ١٥ ، ١٦ وهو يقدم تخلقه بعض معالم هذا الذكر الحكيم للتعريف به والايمان بما فيه : (..قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) ويقول رب العزة في سورة الاسراء ، وهو سبحانه يبين للبشر عن بعض المقاصد العظمى التي يستهدفها الذكر الحكيم في اسعاد البشر ونجاح حياتهم . (ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) .

ويحدد رب العزة طبيعة العصمة في هذا الذكر الحكيم فيقول تعالى في سورة البقرة : (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) .

ويقول تعالى فيه من سورة فصلت وهو يخبر عن مسؤولية الذين نزل
الذكر الحكيم بلسانهم نحوه في العمل به ، والحفاظ عليه : (حم ، تنزيل
الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً
فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)

ويخاطب الله سبحانه نبيه المصطفى الخاتم عن طبيعة هذا الحق الالهي
فيقول له في سورة الاسراء : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما ارسلناك
الا مبشراً ونذيراً) .

ويصف سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم مضمون الذكر الحكيم
فيقول (انه ستكون فتن كقطع الليل ، قيل فما النجاة منها يا رسول الله
قال كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم
ما بينكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، من تركه تجبرا قصمه الله ، ومن ابتغى
الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر
الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيف به الالهواء ، ولا تتشعب
معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملئه الاتقياء : من علم علمه
سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدي
الى صراط مستقيم) .

ب) القرآن الكريم في لغة العرب

بعد ان نزل قول الله تعالى لنبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم : (اقرأ
باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم
الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) .

وبعد أن تدثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثياب فترة من
الوقت ينتظر ما الله صانع به جاءه الوحي الالهي ليقول له من خلاله

رب العزة : (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك ، فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكفر ، ولربك فأصبر)

وبعد أن قال له ربه : (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والارض) : الآية . أعلن صلى الله عليه وسلم دعوته عن الله رب العالمين للملأ من حوله .

وفي خضم المواجهة التي قامت بها قريش في بادئ أمر الدعوة الاسلامية أرسلت عتبة بن ربيعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه رغبة قيادات قريش في أن يتخلى عن دعوته ، مقابل أمور دينوية عرضوها عليه ، ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك بوحى الله له بإعتباره رسول رب العالمين أن للعرب قابليات واستعداد خاص لتقبل دعوة الله ، اذا ما مست حقيقتها شغاف قلوبهم ، وخطابت ضمائرهم وتحذث الى عقولهم ، ومن هنا رأيناه صلى الله عليه وسلم يرد على عتبة بن ربيعة بوضع آيات من القرآن الكريم ، ما ان أصغى لها قلب وعقل هذا العربي الفصيح الا وأنطلق الى قومه ليقول في القرآن الكريم .. أعني في الآيات الكريمة التي سمعها ، كلاماً وشهادة لا تزال حتى اليوم بعض دليل على مقدار ما يملكه القرآن الكريم بالصدق والكمال والقداسة التي يتضمنها النص من هيمنة على نفوس أرباب البيان وأفصح خلق الله تعبيراً عن دلالات - الاشياء وحريتها وحركتها .

يقول عتبة بن ربيعة : (اني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، واخلتوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم فان تصبه العرب فقد كفيتموه بخيركم ، وان يظهر على

العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

ونستطيع أن نلاحظ تأثير القرآن الكريم على قلب من يسمعه ويتدبر معانيه لقد أثر القرآن الكريم في عقل عتبة وهو على دين آبائه (مشركاً) ، ولقد قالت قريش له : لقد سحرك يا أبا الوليد .. ولو علمت قريش أنها حين تزيل الاغلال من حول اعناقها وتبصر نور الحق بقلوبهم ، كما فعلت بعد فترة من الزمان لتدبر القرآن الكريم مبكراً ، ولما قالت في عقبه ما قالته ، وصدق رب العالمين حين يقول : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفلها) .

ج) الجو القرآني :

المتدبر لآيات الذكر الحكيم ، والمستشعر لروح النص ورويقه ، يرى في القرآن الكريم (نفساً) روحياً ، وحركة في الوجدان فيها من السمو النفسي والطهر الوجداني والنقاء الروحي ما يرقق القلوب ويلين الافئدة ، ففي القرآن الكريم يجد المتدبرون - لآياته فوق معطيات الامن والخير ، حياة لروحهم وسموا بواقعهم ، وينهلون من عذب حديثه ، وصدق خبره النور والصفاء وهيمته الروح على عالم المادة ، فتصبح حياة المؤمنين به فردوساً من المعاني القدسية ، ونوراً من الاقداس الروحية ، وهدياً من الذات العلية ، ذلك لأن خاصية اللفظ القرآني ، وان كانت مفردة كلماته لغة العرب في بيانها ونقائنها الا أنها تحمل في جوهر البناء القرآني قدسية وخاصية الوحي الالهي للناس ، ومن هنا يبدو واضحاً أن الجو القرآني ، وخاصة في المناخ النفسي ، للمتعبدين بتلاوته ، تتجلى فيه دائماً أبداً تلك الفيوضات التي تملأ قلب المؤمن ، وهو أمام آية قرآنية أو بعض آية .

(١) (السيرة النبوية لابن هشام) تحقيق وضبط : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القسم الاول الطبعة الثانية عام ١٩٥٥ م ص ٢٩٣

انظر الى قول الله تعالى في سورة الاسراء . الآيات من ٤٢ - ٤٥ - (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لا يتغوا الى ذي العرش سبيلاً ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليماً غفوراً ، واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) .

انك أمام قول الله تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده) تشعر بضالة كل وجودك أمام هذا الكون المسيح وفي الوقت نفسه تشعر باحساس - الايمان - داخل أعماقك ، وكأن قوة لا تعرف كنهها في داخلك أمام هذه الصورة الكونية المسبحة التي أخبر الله عنها داخلك تسبح وتسبح : ولا جدال أن هذا الجو النفسي هو مما انفرد به الذكر الحكيم وتمييز ، وهذه خاصية هذا الكتاب المبين من بين سائر الكتب المقدسة بحكم عصمة الله تعالى له ، واستبقاء روح ونص الوحي الالهي فيه على ما هو عليه منذ نزل على قلب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ان آية واحدة من كتاب الله تعالى في سورة النور رقم ٤٥ التي يقول الله تعالى فيها : (والله خالق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) لتضع المسلم أمام صورة كونية في خلق الله تعالى لا حد لها ولا - حصر ، لا يخرج المرء المؤمن من أعماق هذا العالم المتصور والمستنطق الذي - تورده مقدمة هذه الآية الكريمة الا على حكمة الحكيم الخالق وقدرته ولبقته المسلم في يقين تام عند ختام الآية مقراً ومعتزلاً ومؤمناً حين نجيء خاتمة الآية على هذا النسق (... ان الله على كل شيء قدير) .

فيسبح قلبه وتخشع جوارحه وتسكن نفسه ويمتلئ يقيناً بأن رب الخلق وراء كل شيء وهو على كل شيء قدير .

الفصل الثاني

(١) كيف نزل القرآن الكريم وحياً الهياً ؟

من المرجّح عند العلماء والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم ، أنه ليس بين الكتب السماوية الصحيحة حين كانت وقت نزولها قبل أن تتعرض للتحريف والاضافة كتاب في حجم وشمول القرآن الكريم باعتباره الكتاب الخاتم والتميم والمهيمن ، ومن هنا فان الوحي الالهي الذي كان ينزله الله تعالى على قلب رسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يعرض له صلوات الله عليه في صور وحالات عديدة ، وذلك حتى يتاح له تحمل هذا الحجم العظيم من كلام الله الذي ألقى على قلبه صلى الله عليه وسلم . ولكي لا يتسرّب الى ذهن أحد من الناس أن الوحي الالهي الذي كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم من قبيل الحالات النفسية أو الايحاءات الروحية الخاصة التي قد تعرض لبعض الناس ، فانا نريد أن نعرض لبعض صور الوحي الالهي التي كانت تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقبل أن نتعرض للقول بأن الله سبحانه قد منّ على بعض رسله من الخلق بالوحي الالهي ، وأن ذلك كان بحكمته سبحانه اصطفاً واختياراً من أجل اسعاد البشر وهدايتهم فانا نعرض صور الوحي التي كانت تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* في بدء الدعوة وفي حالات قليلة بعد البدء كان الوحي يأتي في صورة (الرؤيا الصالحة في المنام) . ففي حديث متفق عليه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت : (أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة

في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) . وهذا النوع من الوحي الالهي الذي لا واسطة فيه لعله كان من قبيل التهيئة لامكانات النبي صلى الله عليه وسلم لان يتحمل الوحي يقظة ، ولم يكن هذا النوع من الوحي - المنام - (١) مما ينزل به القرآن الكريم أبداً لانه في تقديرنا كان بمثابة تجهيز بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لان تتقبل الوحي الالهي من خلال جبريل الامين الذي كان ينزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم .

هذا .. ومما يجدر بنا أن ننوه اليه انه في أمر القرآن الكريم بالذات من بين جملة ما أوحى به الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم كان جبريل - بأمر ربه هو المنفرد بالتبليغ ، وذلك لخاصية القرآن الكريم وكونه (كلام الله تعالى) . وما في صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا في المسجد ، اذ أغفى اغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : نزلت عليّ آنفاً سورة فقراً (بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شئت لك هو الايتير) لم تكن هذه الاغفاءة التي وقعت في المسجد من قبيل النوم أبداً وانما هي حالة من الحالات التي كانت تلازمه صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي ، نظراً لاختلاطه بجبريل الامين .

هذا .. ونود أن نقرر أن الوحي الالهي الذي كان يقع للانبياء من خلال بعض الصور والحالات التي توهم بالمنام أنها ليست من قبيل نشاط العقل الباطن ، انما هو من قبيل التنويع في مخاطبة رسل الله وهم بشر من الخلق ، ولله سبحانه كان يخاطبهم ويوحى اليهم بوسائل منها الخفيف والأخف ، ومنها ما يثقل به جسد النبي ويتفصّد جبينه عرقاً في ليلة باردة ، هذا ومما يدل

(١) للعالم المجاهد (مناع القطان) عميد المعهد العالي للقضاء بالرياض بالملكة العربية السعودية دراسة قرآنية متكاملة في هذا الموضوع بعنوان (مباحث في علوم القرآن) الطبعة الرابعة - بيروت عام ١٣٩٦ هـ انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب .

على أن الرؤيا في المنام للأنبياء من قبيل الوحي الالهي قوله تعالى عن أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام : (فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فأنظر ماذا ترى ، قال يا أبتى أفعل ما تؤمر ستجدني انشاء الله من الصابرين ، فلما اسلما وتله للجبين ، ونادياه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ، ان هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على ابراهيم ، كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) (١) .

ومن البداهة انه لو لم تكن هذه الرؤيا الصالحة وحيّاً من الله لما أقدم — ابراهيم عليه السلام على ذبح والده ، ولما قصها الله تعالى في القرآن الكريم . هذا .. ومن أنواع الوحي أيضاً الذي يرسله الله لبعض رسله الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة ، ومن قبيل كلام الله تعالى لبعض رسله بدون حجاب كلامه تعالى لموسى عليه السلام وهو ثابت له كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم ، ففي سورة الاعراف جاء قوله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك) .

وفي سورة الاعراف جاء قوله تعالى : (وكلام الله موسى تكليماً) وهذا النوع من الوحي يكون من الله تعالى لبعض صفوة رسله كما ثبت هذا النوع من الوحي او هذا التكلم على الاصح لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء والمعراج (٢) وهذا النوع من الوحي لم ينزل من القرآن الكريم منه شيء على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

(١) (سورة الصافات) الآيات : ١٠١ - ١١٢

(٢) (دكتور عبد الحليم محمود) شيخ الازهر في كتابه : الاسراء والمعراج طبعة مجمع البحوث

الاسلامية عام ١٩٧٠ صفحة ١٢٧

(٣) (مناع القطان) : مباحث في علوم القرآن صفحة ٣٩ من الطبعة السابق الاشارة اليها

ب) وحي القرآن الكريم :

من بين الصور التي كانت تعرض لرسول الله حين يوحى اليهم ، انفراد الذكر الحكيم بخاصية لم يتصف بها كتاب آخر ، ذلك بأنه كان لا ينزل منه شيء على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة (ملك الوحي) يحمل - كلام رب العالمين والامر في هذا كان كما يقول العالم المقتدر (منايع القطان) : لا تخلو كيفية وحي الملك الى الرسول صلى الله عليه وسلم من احدى حالتين :

الحالة الأولى : وهي أشد على الرسول ، لن يأتيه مثل صلصلة الجرس والصوت القوي يثير عواجل الانتباه فتهايم النفس بكل قواها لقبول أثره ، فاذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول صلى الله عليه وسلم نزل عليه وهو مستجمع القوى الادراكية لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكون الصوت خفيف أجنحة الملائكة المشار اليه في الحديث الذي رواه البخاري : (اذا قضى الله لامر في السماء ضرب الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان) وقد يكون صوت المسلم نفسه في أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسماع ، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي ، ويطمئن اليه اطمئنان الانسان لآخيه الانسان .

يقول الاستاذ (منايع القطان) والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها ان يتجرد من روحانيته (١) ولا يعني ذلك أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنساً للرسول البشري ، ولا شك ان الحالة الاولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الايناس ، وهي تحتاج الى

(١) (منايع القطان) مباحث في علوم القرآن صفحة ٣٩ .

سمو روجي من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك ، فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون : (انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمانية) .

وكلا الحالتين مذكور فيما روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما أقول) .

ولقد روت عائشة رضي الله عنها ما كان يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة حين كان الوحي ينزل عليه فقالت : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً) .

هذا — وأنواع الوحي الثلاثة : الوحي عن طريق المنام والكلام الإلهي للنبي من وراء حجاب ، والوحي الإلهي بارسال الرسول وهو جبريل قد تضمنته الآية الكريمة من سورة الشورى في قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما يشاء انه عليّ حكيم) .

(ج) ظاهرة الوحي :

غالى الماديون والملحدون في انكار الوحي الإلهي وخاصة بعد أفانين ومبتكرات علوم النفس الحديثة ، وحاول بعضهم بغباء من منطق الحادي أن يفسر ظاهرة الوحي الإلهي على أنها من قبيل حديث النفس ونشاط العقل الباطن ، وهم في هذا واهمون عاجزون أبعد ما يكونون عن البحث العلمي والنظرة الفاحصة التي يدعونها لان الظواهر التي كانت تلازم الصفوة المختارة

من خلق الله لا يمكن تفسيرها على أنها من قبيل الظواهر النفسية ، ولئن جاز لهم ان ينكروا الحالات والصور التي كان يتعرض لها الرسول الذي يلقي اليه الله سبحانه وحياً من عنده بحكم الحادهم وماديتهم فهل يمكنهم أن ينكروا آثار الوحي الالهي على قلب بشر نبي يعيش في وسط اجتماعي وسياسي معين ثم يجيء الواحد منهم ، فيسوق من أخبار الماضي وحوادثه ، وتواريخ الأمم والافراد ما لا علم ببيئته ولا عصره به ، ثم يتنبأ بأخبار وحوادث الغد القريب والبعيد على السواء ، فلا تجيء واحدة من هذه الاشياء بخبر تكذيبه او على غير ما ساقه .

ان التاريخ العربي القريب يحدثنا عن تلك العداوة الشديدة والبغضاء الذي لاحد له ، والكره الذي انطوت عليه نفس أبي جهل - هشام بن عمرو - ضد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ونزل القرآن الكريم ليقص بعضاً من تلك البغضاء لكنه في نفس الوقت نزل يتهدد ويعلن عن مصير أبي جهل ويحدثه بأنه في النار نظراً لعدم ايمانه بمحمد وحره له واستمراره على ذلك ، يقول رب العزة : (تبت يدا أبي لهب وتب ، سيصلي ناراً ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد) . لقد كان يملك أبا جهل وحده وكان له مطلق الحرية ولم يمنعه مانع في أن يناور وأن ينافق ويعلن اسلامه ، أو تبعيته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعندئذ يستطيع ان يضع الدعوة وصاحبها بعد هذا القرار في هذا المأزق الذي لا مخرج منه والذي يقوم برهاناً على كذب ما ادعاه محمداً ، لكن رب الوحي قد سبق علمه في أن (هشام بن عمرو) ابو جهل لن يقوها ولو نفاقاً ومراوغة ولن تستجيب مشاعره ولن يسمع قلبه بدعوة الحق ، ولن ير النور الالهي ، فلم يحاول او يراوغ ، وطبع عليه أمر الله وهو يحيا والوحي يتنزل (سيصلي ناراً ذات لهب) اليس في واقعه كتلك فقط وهناك مئات غيرها فاض بها الذكر الحكيم أكبر دليل على أن

الوحي الالهي ، ليس ظاهرة نفسية او فيوضات خاصة ، كما يقول بذلك منكرو الوحي من عبدة المادة ومن أصحاب الفكر المادي ومفسري التاريخ على غير حقيقته .

أي فيوضات وأي بواعث نفسية تلك التي صاحبت رسالة الانبياء والمرسلين وعصورهم وبيئاتهم ، لم تكن لتساعدهم على ما قدموه للناس من برهان وآية .

ان المتأمل في كتاب الله يجد كثيراً من قضاياها فيها مراجعة وعتاب للنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم من ربه ، فكيف يكون حديث النفس وفيوضات تلك التي عبر عنها القرآن الكريم وهو يقص أخبار الروم ولم تكن تلك الحوادث قد وقعت بل وكل الشواهد الماثلة قبل وقوعها تنبيء ، بعكس هذه الاخبار ، ثم وهو يقص أخبار الخلق والطوفان وحوادث الأمم ولم تكن تلك الحوادث بعد قد عرفت .

ان البراهين العلمية التي ساقها الذكر الحكيم ، ولم يكن العصر كله عصر الوحي - يعرف عنها شيئاً ثم جاءت البحوث العلمية والدراسات الكونية لتؤكد صحة وصدق هذه البراهين لأكثر دليل على أن معطيات الذكر الحكيم ليست من عند بشر ولا هي من صنع مخلوق . وعلى هذا فليس الوحي الالهي على يد كل الانبياء والمرسلين ظاهرة طبيعية أو نفسية ، ولكنه حقيقة الهية لا يستقر الايمان بها الا في قلب المؤمن ولا تتحدد معالمها الا في عقل وضمير الفطرة السوية التي لم تتلون بلوثات الفكر المادي ومذاهبه المعطلة لعقل الانسان وقلبه ولم تقع أسيرة امام تلك الانماط والاشكال التي تقع على الحس ويقع الحس عليها وانما وظفت في أمانة ومسؤولية ما استودع الله اياها من قدرات ومأكات وهيمنة روح فأبصرت الحق وميزته من الباطل وصدق رب العالمين فيما قاله في سورة محمد في الآية رقم ٢٤ : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

د) مراحل نزول القرآن الكريم :

من المعروف أن القرآن الكريم ، نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (منجماً) أي متفرقاً وعلى مراحل ، مرحلة بعد الأخرى ، وآية أو آيات مع بعضهما أو بينهما فترة من الوقت ، وقد استغرق نزول القرآن الكريم كله المكّي والمدني ، أي الفترة التي كان ينزل فيها الوحي بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، والفترة التي كان ينزل فيها الوحي ورسول الله قد هاجر إلى المدينة أكثر من عشرين عاماً دون — توقف طويل أو انقطاع مستمر عن النزول .

فقد كانت الآيات الكريمة ، تنزل حسب الملابس والظروف والأحوال التي كان يمر بها العمل الإسلامي ، أو حسب إمكانات المسلمين المرحلية التي كانوا يعمرون بها ، كما هو الشأن مثلاً في آيات الجهاد وقتال الأعداء التي جاءت في الترتيب متأخرة عن غيرها ، فإن المراحل الأولى من عمر الدعوة الإسلامية لم تكن تسمح للمسلمين بأن يتعرضوا لمقاومة أعدائهم .

وفضلاً عن هذه الاعتبارات فإن نزول القرآن الكريم منجماً في بضع وعشرين سنة حقق أغراضاً عظيمة وكبرى كان منها مثلاً :

* تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بدوام تكرار نزول الوحي الإلهي عليه صلى الله عليه وسلم وربط الأرض بالسماء فترة تكوين الدعوة واعداد المؤمنين بها .

* متابعة الوحي لكل ما يجد على المسلمين من أوضاع وملابس وحوادث ومشكلات في مرحلة البناء الجديد للدعوة وللناس .

* تسهيل حفظه ووعيه لأن المسلمين كانوا مكلفين بحفظ ما ينزل ، ولم تكن قدرة جميع من أسلموا في الحفظ واحدة ، فكان في نزول القرآن الكريم

مرحلة بعد الاخرى فرصة من الوقت لحفظ الذي نزل وتداوله والعمل به بشكل عام ، فقد روي عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال : (كان الرجل منا اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا) أي عظم .

وقد روى أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال : (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها والعمل بها ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً) . وحتى يتفرغوا تماماً لمتابعة ما ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتاب ربهم فقد نهاهم الرسول فترة طويلة من عمر الدعوة ، أن لا — يكتبوا شيئاً غير القرآن ، خشية أن يلتبس بغيره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه — مسلم عن أبي سعيد الخدري : (لا تكتبوا غني شيئاً غير القرآن ، ومن كتب غني غير القرآن فليمححه ، وحدثوا غني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

* معاونة الوحي الالهي من خلال — جبريل — بأمر الله تعالى لرسول الله والمسلمين فيما تعرضوا له من أسئلة المشركين وجدالهم في فترة مكة ، ثم نفاق اليهود ومراوغتهم في المدينة ، ولم يكن من المنطق في مسار الدعوة أن ينزل القرآن الكريم بكل ما فيه من أحكام وقضايا الحياة والتزامات المسلمين فضلاً عن تصحيح عقيدة التوحيد وتقريرها بعد أن تعرضت لما تعرضت له من أفكار مادية ووثنية على يد شعوب وأمم الانبياء السابقين الذين حرقوا رسالة الله وذلك لكي ينقل المجتمع المسلم دفعة واحدة فكان لا بد من هذا التدرج .

ولو نزل القرآن الكريم دفعة واحدة كما كان يكابر بعض المشركين بالامس وكما يجادل بالباطل اليوم الملاحدون والمتعاملون لما تحققت هذه الاغراض ، ولما أمكن للمسلمين أن ينتزعوا العقائد الباطلة شيئاً فشيئاً ، فضلاً عما كان يمكن

أن يوجه للدعوة الإسلامية من اتهام في مصدرها الاول وهو (القرآن الكريم)
بأنه تحت دعوى الاقتباس أو النقل أو السرقة قد ساق دعوته للناس مرة واحدة
في وسط مناخ كانت فيه الكهانة الدينية اليهودية لا تتورع عن صنع زيف
دعوى كهذه ، فكانت حكمة العليم الخبير أن يكون هكذا ، وأن ينزل الذكر
الحكيم منجماً على طول امتداد المراحل التي قاربت ثلاثة عشر عاماً في مكة
وعشرًا بالمدينة .

الفصل الثالث

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم :

في أوائل القرن السابع الميلادي وفي ابان الدعوة الاسلامية ، وحين كان - القرآن الكريم ينزل على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كانت القبائل العربية غير موحدة اللغة ، فقد كانت تتحدث بعدة لهجات ، بل كان لكل قبيلة ألفاظها وتعبيراتها لكن هذه الالفاظ والتعبيرات ، كانت ضمن الاطار العام (للغة الام) اللغة العربية التي كان يسجل بها الديوان العربي نثره ونظمه وحكمته .. ولقد كان من الممكن لشعراء القبائل العربية وحكمائهم أن يعقدوا مقارنات بين مدلولات الالفاظ عندهم ودلالاتها على لسان قبيلة وأخرى .

وإشاء الله الحكيم أن تكون (لغة قريش) وسطاً بين هذه اللغات واللهجات وأن تكون على مر الزمن - قبل الاسلام - بحكم اشتغالها على دلالات اللهجات عند القبائل العربية أقوم ألسنة العرب وأعذبها بياناً ، ومن هنا رأينا ارادة الله سبحانه توجه نبيه صلى الله عليه وسلم أن تكون لغة قريش هي أعلى وأثمن ما كان يملكه من تعبير عربي وقدرة ابانة فهو صلى الله عليه وسلم القائل : (أنا أعريكم أنا من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر) .

من هنا رأينا لغة القرآن الكريم مستقطبة وموجهة لكل لغات العرب ولهجاتهم وحين كان القرآن الكريم ينزل بلغة قريش مصوراً مجتمع ما قبل الاسلام ، راسماً ومحددأ خطوط الدعوة الاسلامية واسلوب العمل لها ، نزل

بلغة لم يبلغ شأوها ابليغ البلياء وأفصح الفصحاء ، وليس عجباً أن يدخل القرآن الكريم مقتحماً وجدان العرب الذي يدرك على بصيرة من بيان لسانه اعجاز النص القرآني حين يقول له رب العزة من خلال الوحي الالهي على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في سورة الاسراء : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وتبلغ الآية القرآنية برهانها في الاعجاز والتدليل حين يقول رب العزة :

(أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) . ولا عجب اذا حدثنا التاريخ الديني بعد ذلك لعدوم القرآن ان البلياء والفصحاء ، قد أذعنوا للقرآن الكريم طوعاً أو كرهاً ، فلقد أثبتت لغته أنها أصح وأدق الاصول اللغوية والبيانية ، وحتى عند الذين لم يؤمنوا في عصر الدعوة الاسلامية الاول عناداً ومكابرة كان القرآن الكريم هو المقياس والميزان اللغوي لكل ما يراد الاستشهاد على صحته عربياً .

ومع طول الزمن وتداول بعض الادعاء على القرآن الكريم ، فلم ينل منه كل المعاندين والمكابرين ، بل وكل جهود العصابات العلمية الخاقدة على الاسلام وأهله لم ينل منه شيئاً ، وحفظ القرآن الكريم اللغة العربية ، من كل مؤامرات العمل المفسوس — والمنحول والمختلق ، وحفظ الله تعالى القرآن الكريم منذ قال سبحانه في سورة الحجر (أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (١) .

هذا .. وقد غني المسلمون منذ فجر الاسلام الى يومنا هذا بل والى قيام الساعة انشاء الله بالقرآن الكريم تجويداً وتلاوة وحفظاً ودرساً وشرحاً ،

(١) سورة الحجر . الآية رقم ٩

يستمدون منه ما يحتاجون اليه في دينهم وديارهم وما يفيد عقولهم وقلوبهم (١)، ولن تجد كتاباً على وجه الارض لقي من الاهتمام والتقدير والعناية مثل ما لقيه القرآن الكريم من المسلمين .

وحتى في المراحل التي أحيل بينهم وبين العمل به والتعبير عنه — مثلما هو الآن في كثير من بلاد المسلمين — فان جهاد الجمهور المسلم والعلماء من أجله ومن أجل تداوله والعمل به يبلغ في قلوبهم درجة من صدق العاطفة وقوة اليقين لم ينلها كتاب على وجه الارض من التبجيل والقداسة والفداء .

والقرآن الكريم يتميز عن الكتب السماوية التي سبقته بأنه يتضمنها ويهيمن عليها ومتمم لها ومكمل لما فيها ، ومن هنا فلا كتاب بعده ويجب على كل مؤمن به أن يؤمن بهذا وأن يعمل له .

ومما يجب الايمان به ويجب أن تستقر القلوب والعقول يقيناً أن القرآن الكريم بهذا الشكل الذي بين أيدينا وعلى الهيئة التي انتهى بها الينا وبهذا الترتيب الذي علمنا اياه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى وليس لبشر حتى رسول الله عليه السلام أدنى جهد في ترتيبه او وضعه بهذا الشكل الذي انتهى به الينا انما هو عمل رب العالمين لانه كلامه سبحانه وتعالى الذي تعهد بحفظه وصونه عن أن تمسه يد بشر أو فكر مخلوق .

والقرآن الكريم بعد ذلك طاقة روحية خلاقة تربى الفرد وتبنى الجماعة

(١) بعد اختفاء (نظام الكتاب) الذي كان يوجد في بعض البلاد العربية والاسلامية لتخريج أجيال تحفظ كتاب الله ، قيص الله القائمين على أمر المملكة العربية السعودية فأنشأت نظام المجموعات لحفظ القرآن الكريم بالمسجد الحرام من بين طلاب المرحلة الاعدادية والثانوية وترصد لهم مكافآت وتشجعهم .. وبينهم صبية في سن الثالثة عشر قد حفظوا القرآن الكريم كله في عامين او ثلاثة على الأكثر .. وصدق الله العظيم (أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له حافظون) .

على أساس من علائق خاصة تقوم بين المجتمع وربه فتضبط السلوك وتوجه الخطى في اتجاه الله .

والقرآن الكريم قوة روحية لا حدود لها في عمل الانسان حين تدفعه الى العمل والجهاد في سبيل الله من أجل أحقاق الحق ومقاومة الباطل والظلم ، والقرآن الكريم تراث المسلمين النظيف مقوم اخلاقهم في كل المحن والملمات وصانع وجودهم في الشدائد والاهوال ، وفوق هذا فالقرآن بما تضمنه من الحث على النظر والتدبر والتأمل في الكون هو حليف العلم والعلماء وعدم الجهل والجهلاء يدعو المؤمنين به الى العمل والانتاج والى الحق والخير والامانة ، وسوف يبقى الى ما شاء الله المعجزة الالهية الخالدة ، وسوف يبقى ما دامت السموات والارض عنياً بنفسه عزيزاً بطهارته وقدسيته مشعاً بأنوار آياته ، وكلما مضى الزمن كلما ازداد القرآن الكريم اشراقاً ونوراً وحياة لانه كلام الله الحي الذي لا يموت .

(٥) خصائص البيان القرآني :

كان لا بد — بأمر الله ومشئته — أن يكون القرآن في بيانه أعظم قمةً بيانية تحفظ لعظمة معانيه ودلالته وقدسية روحية ينفرد بها ، وإيحاءات روحية كبرى — تهيمن على كل بيان وتشد كل انتباه وتسيطر على كل وجدان ، وهذا هو ما تم في علم الله بالفعل .

فالببيئة العربية التي نزل القرآن الكريم فيها ، وبارادة الله سبحانه صاغه بلغتها كانت أم مقومات وجودها الحضاري — وهي كثيرة — تقوم على ثروة من البيان والابانة (١) .

(١) أنظر : في واحد من أهم أمهات كتب الصحوة الاسلامية المعاصرة التي يفتح آفاقها قلة من مفكري الاسلام كتاب : (لماذا ظهر الاسلام في جزيرة العرب) للكاتب والمفكر الاسلامي (أحمد موسى سالم) صادر عن دار الجيل — بيروت — الطبعة الاولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

وكان العربي يفتخر بما يملكه من شتى دروب المالكات الشعرية والنثرية فيما يصوغه من حكمة وما يقعه من أخلاق او ما يقرره من عرف ، ولقد أجادوا قبيل عصر نزول القرآن وأحسنوا ، وكان لهم من الشعراء والخطباء والحكماء خير شاهد على البراعة اللغوية والاباء النفسي ، والجودة التامة في صناعة الكلام للتعبير عن هذه الخصائص والمقومات ، وبعد ذلك فللغرب هوى بالسجع والساجعين ويعجبون لقول المتفنين فيه فكان قول كقول (سطيح) :
(أقسم ما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليكن ما بين أبين الى جرش) .

وكقول (شق) : (أقسم ما بين الحرتين من انسان ، لينزل أرضكم السودان فليلقين على كل طفاة البنان ، أو ليتمكن ما بين أبين الى نجران)
يعجبهما كثيراً .

ولما جاء القرآن الكريم تحمل تركيبات آياته بعد معنى الايمان بالله وتوحيده جرساً موسيقياً وبناء هندسياً في وحدات اللفظ الواحد ، وتتوارد على نصوص آياته خواطر تنشط من خلالها الروح ، ورؤى وجدانية تحرك المشاعر ويهتز لها قلب الانسان أنصت لها العرب وأرهفوا السمع ، وهم صفوة خلق الله في هذه الخواص . وأمام قول الله تعالى في هذه التركيبية البيانية المعجزة في سورة (النبا) وقف العرب كثيراً امام هذا السياق المبهر والمعجز والذي يؤكد من بين روحه التي تسري بين فقراته على انه كلام رب العالمين . يقول رب العزة :
(... ان جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا تبين فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراً ، الا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، انهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا باياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً فذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً) . أمام هذا النص الالهي أدرك أصحاب الضمائر الحية فيهم أنهم صياغة غير بشرية ونسق غير أرضي ، بل وجدوا أنهم أمام هذا التحذير

يجدون عون الله واضحاً ، هذا العون هم أجدر الناس بالحاجة اليه وأهل الاستعداد لتقبله .

لكل جزء منهم - في المراحل الاولى فقط - حتى اطمأنوا الى سلامة الداعي حار في أمر هذا العطاء القرآني وضحك بعضهم على نفسه وذكر انه من قبيل الشعر أو الكهانة أو من قبيل السحر ان لم يكن سحر .. الا ان الله سبحانه قد اكذبهم جميعاً وما حديث ابن هشام في سيرته عن ابن الوليد عنا ببعيد كبرهان ان من كابر سرعان ما كان نور الحق يوقفه منهراً لا يملك حياله ان يتناول على مقام النص بالكذب او بالعدوان .

يقول ابن هشام في سيرته (١) . (... ثم أن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قریش ، وكان ذا شأن فيهم وقد حضر الموسم ، فقال : يا معشر قریش حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً قالوا : فأمنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به قال بل أنتم فقولوا قالوا نقول انه كاهن ، قال والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه قالوا فنقول مجنون قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بحنقه ولا تحاليجه ووسوسته قالوا فنقول شاعر ، ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا فنقول ساحر ، قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحروهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول يا عبد شمس ؟ قال والله أن لقوله لحلاوة ، وأن أصله لعذق ، وان فرعه لحناء ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الا عرف انه باطل ، وان أقرب القول فيه لان

(١) السيرة النبوية لابن هشام - الطبعة الثانية ١٩٥٥ ص ٢٧٠ من القسم الاول تحقيق -

مصطفى السقا - ابراهيم اليباري - عبد الحفيظ شاري

تقولوا : هو ساحر جاء يقول هو السحر يفرق المرء وأخيه وزوجه ، هو سحر يؤثر ، ومحمد ساحر وهذا هو السحر المبين) .

هذه الواقعة تكشف لنا كم كانت حيرة العناصر التي لا تريد ان تستسلم لنور الحق الذي أمامها ، ومع ذلك فلا تملك مكابرة فيما بينها وبين نفسها أمام هذا النور ، وهذا هو الموقف الذي تناولته آيات الذكر الحكيم من سورة المدثر ، ولعلها تعني الوليد ابن المغيرة بالذات ، يقول رب العزة : (.. أنه فكر وقدّر فقليل كيف قدّر ثم قيل كيف قدّر ثم نظر ، ثم عبث ويسر ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر) (١) .

(و) علاقة القرآن بالوجدان العربي :

تتجلى هذه العلاقة باعتبار ان العرب في بادىء الدعوة هم حاملتها وأدواتها للناس جميعاً ، فضلاً عن اصطفاء الله لهم بأن يكون شرف النبوة فيهم فيما تطالعنا به قصة اسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فتكشف لنا عن بعض مظاهر تأثير القرآن الكريم على نفوس العرب وقلوبهم ، فبعد أن سمع شيئاً من القرآن الكريم في بيت أخته التي سبقتها الى نور القرآن الكريم ، تدبّره وأنصت له فانفتح قلبه عليه فلم يسعه الا ان يؤمن وأن يقول بعد ذلك في التعليق على هذه الواقعة : (فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي فأدخلني الاسلام (٢) .

وصدق رب العالمين اذ يقول في تأثير القرآن الكريم في القلوب الخيرة النقية - وهيمنت على النفوس الطاهرة : (... تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) الزمر ٢٣ .

(١) (سورة المدثر) الآيات ١٨ - ٢٦ .

(٢) (ابن هشام) الجزء الاول ص ٣٤٤

ويقول تعالى عن تأثيره فيهم : (.. اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً ، ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً (١) .

ولقد كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً ، وخاصة في أمور المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب ، وكانوا ينطلقون الى ذلك ثقة منهم بقوة الطبع وتدفق الشاعرية ، وحين نزل القرآن الكريم قدم لهم برهانه في آيات كثيرة .. ومن عجب أن القرآن الكريم سلك في طريقه تقديم برهان للعرب كل مقومات الفطرة وحقائق الايمان التي هم على علم بها ومجهزين لتقبلها ، فلما رفض بعضهم في بادىء الدعوة نور القرآن الكريم ، استهدف العليم الحكيم أن يشهد التاريخ ولتشهد كل أجيال الانسانية الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ، أنه لا قبل لمخلوق ان يقف متحدياً أو عائقاً امام عظمة النص القرآني ، بعد أن عجز العرب عن مجابته او تكذيبه ، أو الاتيان بمثله أو بسورة منه أو بآية على نمطه ، وهم الخطباء والشعراء وأصحاب البيان الذين يملكون وحدهم القدرة على مواجهة النص لو كانوا حقاً يقدررون ، ومن أعظم البراهين القرآنية في الدلالة على أنه من عند الله أنه سلك الى عقل الانسان طريقاً يحبها ويتوق اليها وهي أنه دعاهم الى المساجلة والتحدي في الاتيان بمثل القرآن أو بعضه ، ومن أعظم براهين هذا الذكر الحكيم أنه قبل المساجلة والتي هي في علم الله لن تتم لانهم لن يقدرروا عليها أعلن سبحانه سلفاً عن عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، وحين يعجز العرب عن مجابهة القرآن والاتيان بمثله فباليقين كل الدنيا عاجزة عن أن تأتي بمثله بل عاجزة عن أن تأتي بمثل آية منه ، يقول رب العزة في سورة الاسراء : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (٢) .

(١) سورة الاسراء - آتيا ١٠٧ - ١٠٨

(٢) (سورة الاسراء) آية رقم ٨٩

ومع كل هذا البرهان القاطع ، فان الذكر الحكيم تدرج بعد ذلك في معالجة المواقف المعاندة فطلب من أرباب البيان وملوك الفصاحة أن يأتوا بعشر سور ولو مفتريات ، ليس فيها حكمة القرآن ولا حقيقته الالهية ، ولكن المطلوب فقط أن تكون على غرار نظمه وتراكيب أسلوبه ، ومع ذلك عجزوا ، ويناقشهم القرآن ويوبخهم على مواقفهم المعاندة ويقول تعالى في سورة هود : (أم يقولون أفتراه ، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وان لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون) (١) .

وانتقل القرآن الكريم الى موقف أشد اثارة وأعظم استفذاً حين وضع أرباب اللغة وعباقره الشعر وملوك القصيدة في هذا المأزق الحرج ، وطالبهم أن يأتوا بسورة واحدة في قوله تعالى من سورة يونس : (أم يقولون أفتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من أستطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (٢)

وبعد كل هذه المواجهة القرآنية للتدليل على اعجازه ، أمام من كانوا وحدهم في عصر الدعوة عندهم القدرة العقلية واللسانية على أن يواجهوا القرآن ولم يقدروا - وخاصة بعد كل مراحل التدرج القرآني في اعجاز العرب لاقرارهم بعجزهم عن ان يشبثوا أن القرآن من صنع البشر ، وأن للجهود العقلية والانسانية علاقات به ، وبعد أن عجزوا تماماً وهم أصحاب قدرة فائقة ، قرن القرآن الكريم هذا التحدي بالتأنيب والتفريغ والتوبيخ بل والتهديد والانذار بالعتوبة .

يقول رب العزة في سورة البقرة : (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسوره من مثل وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ،

(١) (سورة هود) آيتا ١٣ - ١٤

(٢) سورة يونس . الآية رقم ٣٨

فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (١) .

وعند هذا الحد الفاصل حسب القرآن الكريم بآياته قضية اعجازه او برهانه للناس ، فقطع بأن البشر لن يقدرُوا على الاتيان بمثل آية منه لانهم لا يستطيعون ذلك .

هذا .. ومما تجدر الاشارة اليه أنه كان هناك محاولات بشرية كاذبة وعلى نطاق ضيق حاولت معارضة القرآن الكريم ، ولكن العرب أنفسهم لفظوها ورفضوها لتفاهة موضوعها ، وركاكة تركيبها ، منها مثلاً محاولة (الكذاب) مسيلمه حبيب النجدي (٢) الذي كان قد ادعى النبوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يتلى عليه الوحي وينزل القرآن الكريم .. وظلّ كذلك على كذبه حتى وفاه الرسول صلى الله عليه وسلم الى ان قضى المسلمون على فتنته وتخلصوا من كذبه . ففي السنة العاشرة للهجرة كتب مسيلمه الكذاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : (أما بعد فاني قد شوركت في الارض معك وانا لنا نصف الارض ولقریش نصفها لكن قریشاً قوم يعتدون) .

ثم زعم مسيلمه أن له قرآنًا قد نزل عليه ، ويأتيه به ملك يسميه (رحمن) واذا ما القينا نظرة على ما سجله التاريخ من هذه الحمل والفقرات التي ادعى مسيلمه أنها (قرآنًا) لأدركنا مدى هزال وهراء وركاكة كل المحاولات

(١) سورة البقرة . آيتا ٢٣ ، ٢٤

(٢) ومن حكمة الله القدير أن أرض نجد التي أفرزت (مسيلمه الكذاب) هي اليوم وبعد اربعة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم مقراً لقيادة يتصدى أبناؤها المسلمون لقيادة الامة المسلمة ضد كل المخاطر التي تحاك ضد القرآن الكريم من قبل أعدائه .. وهي اليوم التي يرصد أبناؤها الملايين من الاموال لتحفيظ القرآن الكريم - مجوداً - باللغة والطريقة التي ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين عليها كتاب الله بين ظهرانيهم .

والنماذج التي حاولت معارضة القرآن وذلك على ضوء الكلام المنسوب كنماذج لمسيلمة الكذاب .

يقول مسيلمة في سجعه الذي لا يخرج عن كونه سجعاً من سجعات الكهان (والمبذرات ذرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والعاجنات عجنناً ، والحابزات خبزاً ، والثادرات ثرداً ، واللافحات لفحاً ، هالة وسمنا .. لقد فضلتم على أهل الوبور ، وما سبقكم أهل المدر ، ريعكم فأمنعوه ، والمعتز فأووه ، والباغي فناوئوه) .

ولننظر الى أنموذج آخر من سجع مسيلمة الذي ادعاه قرآنًا وحاول به معارضة (قرآن رب العالمين) المنزل على قلب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

يقول مسيلمة : (الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل وخرطوم طويل) .

هذا .. ويهزأ الجاحظ في كتابه (الحيوان) من مسيلمة عن قوله الذي ذكره في الضفدع ، يقول الجاحظ الساخر ، لا أدري الذي هيج مسيلمة على الضفدع ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآنه يقول فيها : (يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقّي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين) .

وبعد : هل لنا أن نضع هذا الهراء السخيف أمام مقابلة قرآنية في آية أو بعض آية ، ان العقل والقلب والفطرة معاً ليرفضون علينا مثل هذه المقابلة .

ان العناد الذي وقفته قریش مرحلياً من الدعوة ومن صاحبها عليه السلام كان الوحي الالهي يتدخل قاطعاً بهذا الشكل المعجز ، الذي تفصح آية من كتاب الله الكريم .

ولننظر مثلاً الى قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في سورة فصلت :
(قل أنتمكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين ، وتجعلون له أنداداً
ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها
أقواتها في اربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال
لها وللارض اثنيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات
في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا
ذلك تقدير العزيز العليم ، فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة
عاد وثمود (١) .

ولننظر أيضاً الى تلك الصورة الكونية الهائلة التي يعجز العقل البشري عن
تصورها لكن القلب القرآني في انسان الاسلام يستشعر ملامحها خوفاً ووجلاً
من الله القادر .

يحدثنا رب العالمين في كتابه الكريم عن هذا المشهد المدلل على قدرته
تعالى فيقول : (يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق
نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) (٢) .

وان آية كتلك التي يحدثنا الله تعالى عنها في سورة الحج يبين بها تعالى
عن كيفية الخلق ومراحله ، ويكشف الله بها عن بعض مكنون سره في الكون
على ضوء سنن الله تعالى وقوانينه في الحياة والأحياء لتدل باليقين على قدرة
الاله الحق وصاحب القرآن الحق على قلب النبي الحق محمد صلى الله عليه وسلم .
يقول رب العزة مخاطباً الانسانية كلها عليها تنتبه وتسترشد الى معطيات
الذكر الحكيم : (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم

(١) سورة فصلت - الآيات ٩ - ١٣

(٢) سورة الأنبياء - الآية ١٠٤

من تراب ثم من نطفة ثم علقه ثم من مضغة لبنين لكم ونقر في الارحام
ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من
يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ،
وترى الارض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت
من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل
شيء قدير ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في
القبور (١) .

الفصل الرابع

الاهتمام الاسلامي بالقرآن الكريم :

منذ نزل القرآن الكريم على النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، أثار في العرب بادية ذي بدء حركة فكرية عظيمة ، ذلك أنه دعاهم الى تدبر معانيه ودعاهم الى الالتفات اليه ، وحين أحسوا أنه لا قبل لبشريته ، — بحكم استحالة ذلك — أن تجابه ما في القرآن من أساليب التعبير والبيان ، تعلقت به أفئدتهم وهوت له قلوبهم ، وأرهفت أسماعهم لما جمع فيه من خير وما ساقه من معان ، ولما لم يسعهم الا التسليم بعظمته والايان به ، انشغلوا به يتتبعون آياته الكريمة ، ويحاول الفقهاء منهم ان يستخلص منه أحكام الشريعة على ضوء ما يخبر به من أمور الدين والدنيا . واقتفى الاثر القرآني علماء اللغة فنهلوا منه ، واستقصوا وجوه الالفاظ ودلالاتها ، بل رجال الفكر الاسلامي راحوا يجمعون ما في القرآن الكريم من قواعد اخلاقية ومبادئ روحية ومناهج حياة وراحوا يقعدون لنظريات جديدة تسير تطور العصور وحركة التقدم الاجتماعي التي كانوا يمرون بها .

ومن الجدير بالذكر أن الاهتمام الاسلامي بالقرآن قد أوجد علوماً كاملة ونظريات جديدة كلها تتجه لخدمة القرآن الكريم ، وحين استقلت واتخذت لنفسها مساراً خاصاً بالبحث والنظر كانت تأتلف مع القرآن ولا تختلف ، وكان منهجها يتحد ولا يختلف ، وحين كان بعض هذه العلوم يترامى الى آفاق جديدة في التشعيبات والجزئيات كانت دائماً تنظر الى الاصل وترتبط به حتى لا تفصل أو تحيد .

وحين تختلف المسائل وتباين وجهات النظر ثم يذكر النص القرآني تحسم كل المشاكل وتنتهي كل الخلافات ، ذلك لان القرآن الكريم في تقدير المسلمين والمشتغلين بعلومه هو الحجة الدامغة التي لا تعاو عليها حجة مهما كانت ، ومهما قويت وكان شأن صاحبها في الدليل .

وانطلاقاً من هذا الاساس ، رأينا علوم التفسير التي أنشئت لخدمة القرآن يبذل أصحابها جهدهم في أن يتخلصوا من هواهم وأهوائهم ، ليرتبطوا قدر الامكان بروح القرآن الكريم والعمل على ابراز بعض معالمه ، ويجدر بنا — ولو في ايجاز شديد أن نعرض لبعضهم من باب التعريف فقط حتى يمكن التعرف على بعض الحشد العظيم الذي قيضه الله لخدمة كتابه العظيم .

فممن اهتموا بالبحث ومحاولة تفهم الروح العام للقرآن الكريم والتعرف عليه ، وكان فكره يدور حول ما يستشعره من معاني النص الكريم ، علماء اجلاء ومن أشهرهم : الكسائي ، والاختفش ، والفراء ، والزجاج ، وأبو علي الفارسي ، وأبو جعفر النحاس فقد كانت الكتب التي كتبها هؤلاء الافذاذ تدور حول معاني القرآن .

هذا .. ونرى علماء آخرين اهتموا بجوانب أخرى من القرآن مثل علماء اللغة الذين وجهوا عظيم عنايتهم الى الكشف عن الاعجاز اللغوي للقرآن ، فذهبوا يبذلون جهودهم الشريفة من أجل تحقيق مثل هذا الهدف ، وكان منهم أمثال : الفراء وأبي زيد الانصاري والاصمعي ، فقد كتب الاصمعي كتابه (لغات القرآن) وكتب الفراء كذلك (لغات القرآن) ثم كتب ابو زيد الانصاري كتابه (المصادر والقرآن) .

ووجدنا علماء آخرين وجهوا عظيم اهتمامهم حول اسلوب القرآن ومعانيه ونظمه واستوفى اهتمامهم تميز التعبير في القرآن وانفراده ، بايحاءات ودلالات

خاصة ، ومن هؤلاء العلماء الاجلاء : أبو عبيده معمر بن المثنى في كتابه (مجاز القرآن) ، والجاحظ في كتابه (نظم القرآن) وابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) .

وبالنظر في هذا التراث الاسلامي العظيم الذي يدل على مدى ارتباط المسلمين بكتاب ربهم ، نرى (ابو عبيدة) يمثل في كتابه (مجاز القرآن) التيار القوي اللغوي الذي لا يغفل آثار البحث البياني ، ويقدم ابو عبيدة لكتابه بمقدمة في بحوث لغوية في القرآن لبحث كلمة (قرآن) .

هذا .. ويعتبر كتاب (معاني القرآن) للفراء دراسة مكملية من الناحية اللغوية لكتاب (مجاز القرآن) .

وحيث تطورت الدراسات المختلفة بتطور الزمن واشتبكت بالحضارة الجديدة وما حملته من فكر ، رأينا (النظام) المعتزلي وقد تأثر بكتب الفلاسفة ودروس الاعتزال واتصل بالثقافة الهندسية والفارسية واليونانية وتعلم المسيحية ولاهوتها ، وكان بطبيعته ميالا الى التجربة والقياس شأنه شأن المعتزلة - غفر الله لهم - لا يقبل التسليم بالمنقول والمأثور دفعة واحدة ، وحين حفظ القرآن نظر فيه على ضوء مذهبه القياسي لا يقبل التسليم بالمنقول ، ورأى النظام (ان اعجاز القرآن في اخباره عن الغيب وعن مستوى اعجازه ، كان يجوز للعباد أن يقدروا على مثله لولا ان الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم ، وحين ذاعت آراء (النظام) تعرضت لنقد شديد وخرج عليه تلميذه الجاحظ وكتب في الرد عليه كتابه (نظم القرآن) ثم توالى مؤلفات كثيرة من أهل السنة تناقش النظام وترد عليه .

وقد اعتمد الجاحظ في كتابه (نظم القرآن) على القرآن في نصه الكريم ، فلم ينهج نهج اللغويين والنحويين ، ولكنه اخذ لنفسه منهجاً وارضى رأياً لاعم بين طبيعة الاسلوب القرآني والبيان العربي .

هذا وقد مرّ الاهتمام الاسلامي بالقرآن بأطوار كثيرة حتى انتهى الى ما يمكن أن يجده الباحثون اليوم من تراث حول كتاب ربهم .

وقد بدأ الاهتمام بالقرآن الكريم في توضيح مجمله ، وتبسيط موجزه ، وشرحه مبكراً فكان أول شارح ومفسر له هو المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل على قلبه . وفي تقرير هذا المعنى الذي نذهب اليه يقول رب العزة في سورة الفرقان : (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) وتناقل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شرحه لهم الرسول ، وكان لكل صحابي من الاربعة تفسيراً لما يعرض له ولم يدّون من ذلك شيء بالطبع ، ثم انتقل الامر مع شيوع حفظ كتاب الله وتعرض المسلمين لأصحاب رسول الله وتابعيهم يسألونهم فيما يعرض لهم من كتاب الله ، أن نشط في تفسير كتاب الله (عبد الله بن عباس) ، (عبد الله بن مسعود) ، (عبد الله ابن عمر) (وعبد الله بن عمرو) . وكذلك كان يمكن الرجوع الى من بقي حياً لفترة طويلة بعد وفاة الرسول من كتاب الوحي كزيد بن ثابت .. الذي شاء الله أن يطول عمره طوال مدة الخلفاء الاربعة .

وهكذا ظل الاهتمام الاسلامي بالقرآن لا يتوقف لحظة من زمان ، كان من التابعين وتابعيهم علماء أفذاذاً تفرغوا لخدمة كتاب ربهم ، فمنهم مثلاً اصحاب عبد الله بن عباس بمكة مثل : عكرمة مولاة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وكذلك كان من أصحاب عبد الله بن مسعود في الكوفة : علقمة بن قيس ، والاسود بن يزيد ، وابراهيم النخعي ، والشعبي ، وفي المدينة كان من أصحاب ابن عباس : زيد بن أسلم والامام المحدث العظيم مالك بن أنس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والحسن البصري ، وقتادة السدوسي ، والربيع بن أنس بالبصرة ، وغيرهم كثير .

هذا .. ويعتبر من أقدم الذين دونوا ما فسروه من كتاب ربهم (عبد

الرازق بن نافع الصنعاني (المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وهو من المراجع الاساسية لمعظم كتب التفسير التي دونت وجمعت بعد ذلك ، والشيخ عبد الرازق بن نافع مشهور بالصدق والقبول في الرواية ، وكذلك يعتبر من أقدم كتب التفسير التي يتأكد بها الاهتمام المبكر بكتاب الله الكريم كتاب (جامع البيان عن تأويل القرآن) للإمام محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، والكتاب مشهور ومتداول .

يقول الشيخ كامل عبد المجيد خطاب : ومن أقدم ما وصل إلينا من كتب التفسير كتاب (معاني القرآن) للفراء المتوفى عام ٢٠٧ هـ (وغريب القرآن) لابن قتيبة المتوفى ببغداد عام ٢٧٦ هـ وكتابه من أهم ما كتب في هذا الموضوع ، وكذلك كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الاصفهاني المتوفى عام ٥٠٢ هـ . وفي هذا الكتاب خصائص نفيسة لا توجد في غيره .

وأيضاً من التفاسير التي اشتهرت بالاهتمام بالنحو والصرف والتصريف والبيان والبدیع تفسير (بحر المحيط) لابي حيان المتوفى عام ٧٤٥ هـ . وهن أشهر كتب التفسير اهتماماً بالمأثور هو ما يسمونه تفسير : القرآن بالقرآن : (تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي المتوفى عام ٧٧٤ هـ) . فقد كان فقيهاً محققاً ومحدثاً بارعاً ومؤرخاً ماهراً ومفسراً ضابطاً ، وتفسيره من أهم كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة والاحاديث المرفوعة المتعلقة بالآيات ، واهتماماً بآثار الصحابة وأقوال التابعين وعلماء السلف ، وقد نقى تفسيره من الاسرائ依ليات وحذر منها .

أ) خصائص الاسلوب القرآني :

لا غرابة أبداً أن يكون القرآن الكريم اسلوبه الذي يميز به ويتفوق به على كل الاساليب لانه كلام (الله) ومن البدهة أن الأسلوب عادة

هو الطريقة التي ينتهجها المؤلف في المفردات والتراكيب لكلامه ، الاسلوب الذي يشكل روح ومعالم المعنى المراد يكون دائماً غير مفردات الكلام وجمل تراكيبه التي يتألف منها ، ومن هنا نرى الفروق الواضحة بين اسلوب وآخر . أما اسلوب القرآن الكريم فشيء آخر . يختلف تماماً عن الاساليب التي يصوغها البشر لان الاساليب البشرية تحمل بين ثناياها طاقة البشر وقدرتهم ومرادهم ، أما الاسلوب القرآني فتسري بين مفردات جملة وتراكيبه مشيئة الله وارادته في هداية خلقه وعونه لهم ، وتتخلله روح تسري في قلب المؤمن ووجدانه فيشعر بذاته مهيمنة على ما حوله ومتصلة به .

واسلوب القرآن الكريم من بين جميع الاساليب التي تقرأ شيء فريد خاص به لانه كما قلنا كلام الله تعالى ، ولا وجه للمقابلة بينه وبين أي نص على الارض مقدس كان أو غير مقدس بعد أن أثبتنا ان النصوص المقدسة عند اصحابها قد فقدت روح الوحي الالهي بعد ان اختلط بما فيها الحق بالباطل ، حقيقة ان القرآن الكريم لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم ، فمفرداته مفرداتهم ، وجملة جملهم في الكلام وقواعد الصياغة فمن حروف العرب تألفت كلماته ، ومن كلماتهم تألفت — بمشيئة الله وارادته — تراكيبه وعلى قواعدهم كانت صياغته ، ومع التسليم بكل هذه المعاني والمقومات ، فان اسلوب القرآن الفذ ومنهجه المعجز الذي يملك القلوب ويهز المشاعر والذي يسيطر بهيمته الروحية على الجوارح ، رب العزة يقول فيه تشريفاً وتكريماً للعرب الذين نزل كلام الله بلغتهم في سورة يوسف : (انا أنزلناه قرآناً عربياً) . ومن هنا يرى الباحثون في علوم اللغة أن أسلوب القرآن الكريم وهو وان صيغ بعبارة عربية من الاسرار الالهية التي يختص بها النص القرآني دون سواه ويتميز بها على جميع النصوص .

وإذا ما أردنا أن ننظر الى بعض مميزات المفردة القرآنية فانا نراها تتسم بمميزات ثلاث :

أولها : جمال وقعها في السمع بطريقة تتسق وجدال الفطرة وسلامتها .
ثانيها : علاقة المفردة القرآنية بالمعنى المراد يجيء دائماً أبداً في اتساق كامل يحقق المعنى المراد .

ثالثها : دلالة المفردة القرآنية عمقاً وشمولاً وسعة بشكل تتميز به دائماً عن دلالات الكلمات الاخرى في نفس اللغة .

اننا اذا نظرنا الى أنموذج واحد كتدليل على ما نقول لرأينا عظمة وشموخ البناء القرآني في تركيباته اللغوية ، فضلاً عن معطياته وجوهر روحه ، يقول رب العزة مثلاً في سورة التكويد : (والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس) ان الفطرة النقية تشم وتستشعر رائحة المعنى قوية واضحة في لفظي (عسعس وتنفس) بشكل يحث الخيال في تصور المعنى ممسوساً محسناً مجسماً دون حاجة الى عون خارجي . وان الخيال لا يستطيع ان يصور حالة اقبال الظلام في الليل وانتشاره في الآفاق الواسعة والمترامية مثلما توجه وتشعر كلمة (عسعس) في لغة العرب . ومهما اسعف مفردات اللغة ودلالاتها في التعبير لتصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه فلن تكون هناك كلمة تضاهي العبارة التي ارادتها مشيئة الله لهذا المعنى في قوله تعالى : (تنفس) .

هذا .. ويسوق الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه (التعبير الفني في القرآن نماذج ودراسات لمواقف آيات دلل بها على اعجاز النص القرآني وانفراد اسلوبه بالمفردة اللغوية بشكل يجعله فوق كل الاساليب ويقول : هل لنا ان نقرأ قول الله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض) ادرس الاداء الفني الذي قامت به لفظة (اثاقلتم)

بكل ما تكونت به من حروف ومن الصورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف (اللثوي) - الثاء - والمد بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو احد حروف القاقلة ، ثم الثاء المهموسة التي تنطبق عليها الشفتان ، ويخرج صوتها من الانف ، الا تجد نظام الحروف وصورة اداء الكلمة ذاتها اوحث اليك بالمعنى ، قبل ان يرد اليك من جهة المعاجم ؟ الا تلاحظ في خيالك ذلك الجسم المائل يرفعه الرافعون من جهد فيسقط في ايديهم في ثقل ، الا تحس ان البطء في لفظ الكلمة نفسها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المائل جرب ان تبدل المفردة القرآنية وتحل محلها لفظة (ثاقلم) ان تلمس شيئاً من الخفة والسرعة بل والنشاط الذي اوحث به (ثاقلم) بسبب وصف حروفها وزوال الشدة وسبق الثاء قبل الثاء ، اذن فالبلغة تم في استعمال (اثاقلم) للمعنى المراد ولا تكون في ثاقلم .

(ب) المكي والمدني في القرآن الكريم :

بعد ان حاولنا معرفة الحكمة من نزول القرآن منجماً أي مفزقاً ، مرحلة بعد الاخرى وذلك لكي يثبت الله به قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، لكي يسهل على المسلمين حفظه ولكي يتابع القرآن الكريم بأحكامه وتشريعاته وتوجيهاته مسار الدعوة وما تتعرض له من تحديات ، كان طبيعياً ان ينزل القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وحيث بدأت الدعوة واستمرت بضعة عشر سنة ، ثم حين هاجر الى المدينة حيث انتشرت وازدهرت ودخل الناس في دين الله افواجا .

ونبادر فنقرر بادى ذي بدء الى انه ليس هناك من فرق أي فرق بين القرآن في مكة والقرآن في المدينة من حيث التنزيل ، فالقرآن جميعه نزل به الروح الامين (جبريل) على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء في مكة او المدينة ، وهذا التقييم - المكي والمدني - في اصطلاح علماء علوم القرآن

هو فقط للتعرف على القرآن - وأسباب النزول بالدرجة الاولى . ذلك أنه من المتفق عليه - اصطلاحاً - عند علماء القرآن أن ما نزل من القرآن بمكة قبل الهجرة فهو مكّي ، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني حتى ولو نزل بمكة ، فالتقييم هنا (زماني) أي العبرة ليست بمكان النزول وانما بزمانه .

وكان من المنطقي ان تتناول الآيات الكريمة التي نزلت بمكة والدعوة الاسلامية بصدد أهم ما جاءت به وهو تقرير عقيدة (التوحيد) وتنزيهاها عن النظير والشبيه وتطهير المعتقد الديني في التوحيد الخالص لله مما شابه منذ طلب النبي ابراهيم عليه السلام أن يحنبه الله وأولاده الأصنام .

ولما كانت الدعوة في مكة قائمة على الشرك ، فان الاحكام الاقتصادية والاجتماعية وأساليب المعاملات التي جابه بها الاسلام أوضاع مكة لم يكن يتوفر لها المناخ الذي يمكن ان يستجاب لها فيه ، لذلك لم يكن في الآيات المكية احكام معاملات وان كان فيها مثلاً اشارات الى المحرمات .

هذا .. ونرى القرآن الكريم في فترة مكة يعالج موضوع بناء العقيدة الدينية والدعوة الى التوحيد ونفي الشرك ، ووضع الاسس العامة التي يقوم عليها المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء ، وذكر قصص الانبياء والامم السابقة ليكون في هذا زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير هؤلاء المكذبين ، والمكي يغلب عليه قصر الآيات مع قوة الالفاظ وايجاز العبارة ، وتكثر فيه كلمة (كلا) التي هي للردع والزجر ويكثر فيه افتتاح السور بالحروف من أمثال : ص - ف - حم - طس .

ونرى المكي غالباً يعالج بناء المجتمع المسلم والاسرة المسلمة بتفصيل الاحكام الشرعية نواحي الحياة المختلفة من معاملات وزواج وطلاق وغير ذلك من الاحكام المعتمدة وتوضيح الحلال والحرام (١) .

(١) (الشيخ كامل عبد المجيد خطاب) في كتابه (دراسات في علوم القرآن) مطبوعات كلية الدراسات الاجتماعية - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض

هذا .. ويكشف القرآن في المدينة عن سلوك المنافقين ويفصح نواياهم ومؤامراتهم ونفسياتهم الخبيثة ويبين خطرهم على الدين والمجتمع ، ونرى فيه كذلك مجادلة أهل الكتاب ومناقشة آرائهم التي تتعارض أحياناً كثيرة مع حقائق التاريخ والايمان كموقف اليهود من ابراهيم عليه السلام وادعائهم بأنه منهم ، وكانت النصارى تدعي انه نصراني فدحض القرآن في المدينة حيث توجد هذه الدعوى حججهم وفنّدها . قال تعالى :

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون) (١) .

هنا ونرى القرآن في المدينة يذكر أحكام الجهاد والحرب والسلام والهدنة وكل ما يتصل بشئون الدولة المسلمة وعلاقاتها مع غيرها من الدول بعقد المعاهدات والوفاء بالعقود ما دامت تحقق هدف الاسلام .

وفي المدينة أيضاً رأينا القرآن الكريم الذي ينزل في هذه الفترة المحددة فيما بعد الهجرة يحدد حركة المجتمع العامة من حيث الآداب والاخلاق والحدود والقصاص ويفتح باب الجهاد الحق للحياة المسلمة ، ويسمح ثم يأمر بقتال الاعداء والاستعداد لهم ، وهو في كل ذلك يضع قواعد الحرب والسلام ونظمها في العلاقات الدولية بين الامم والشعوب .

يقول الامام القرطبي في تفسيره : (الجامع لاحكام القرآن عن قتادة نزل بالمدينة من القرآن : البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الانفال - براءة الرعد - النحل - الحج - النور - الاحزاب - محمد - الفتح - الحجرات - الرحمن - الحديد - المجادلة - الحشر - الممتحنة - الصف - الجمعة -

المنافقون - التغابن - الطلاق - ويا أيها النبي لم تحرم الى رأس العشر - واذا
زلزلت - اذا جاء نصر الله وهذه السور نزلت بالمدينة وسائر القرآن الكريم
قد نزل بمكة ، وقد لاحظ الاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة - رحمه الله في
كتابه (القرآن) ان الامام القرطبي فيما رواه عن قتادة قد جعل سورة النحل
من السور المدنية بينما هي في المصاحف على أنها مكية - فقال رحمه الله لعل
فيها روايتين ، والارجح ما في المصاحف على انها مكية .

الفصل الخامس

معنى جمع القرآن :

في لغة العرب تطلق لفظة (الجمع) ويراد من بين دلالتها الحفظ والاستظهار في الصدور .. وقد تطلق ويراد منها الكتابة والتسجيل في الكتب والمعنيان معا قد تحققا لنا فيما نحن بصدده من معنى جمع القرآن ، فمن حقائق العلم في الاسلام والذي هو في رتبة اليقين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رجلاً (أمياً) لا يقرأ ولا يكتب ، وليس عدم الامام بالكتابة هو الجهل الذي هو نقيض العلم ذلك أنه من المعروف ومن حقائق الايمان كذلك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على حفظ ما ينزل عليه من القرآن ، الى درجة كان فيها صلى الله عليه وسلم يسابق ملك الوحي ويتعجل ما أنزل عليه قبل ان يفرغ منه الملك ، ويحرك لسانه بالحفظ شوقاً ولهفاً لنعمة الله عليه بالوحي ، ويسجل ربنا سبحانه في سورة القيامة هذه الحقيقة فيقول تعالى لنبيه : (لا تحرك به لسانك لتعجل به لنا علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) .

ولقد بلغ من حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حفظ واستظهار ما ينزل عليه من ربه درجة كان فيها يكاد لا ينقطع عن ترديد وتلاوة ما ينزل عليه حتى تعهد له الله سبحانه بعدم نسيان شيء من القرآن وذلك في قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) .

وكان المتبع في أمر القرآن منذ نزل على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أن يتلو الآيات التي نزلت عليه على ملاء من أصحابه وأن يأمر كتابة الوحي بكتابتها بين يديه فيكتبونها وفي وسط الحضور من أصحابه ، وعلى الرقاع والعسق واللخاف والعظام كانوا يكتبون ما ينزل من الذكر الحكيم ويمليه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بنفسه ويحتفظ بما كتب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصياً .

هذا .. وكتاب الوحي عديدون ، أحصاهم الحافظ العراقي ، فذكر اثنين وأربعين كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن المقطوع به أن الخلفاء الاربعة رضي الله تعالى عنهم من أشهرهم ، زيد بن ثابت الذي طال عمره حتى شهد كتابة المصحف في عهد عثمان بن عفان بل تم النسخ تحت اشرافه شخصياً ومعاوية بن ابي سفيان وأبي بن كعب كان هؤلاء ايضاً من كتاب الوحي .

ومن البدهة أن كتاب الوحي في فترة مكة لم يكونوا بالعدد الذي ذهب اليه الحافظ العراقي ، فلم تكن الدواعي الى الكتابة تاح على المسلمين بالشكل الذي كانت عليه في المدينة ، فخشية أن يتخذ أهل الكتاب من بعض آيات الذكر الحكيم على لسان من قد ينشئ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلاً لتحريف او تزيف ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب الوحي منذ نزل المدينة ، فضلاً عن أن المسلمين في مكة لم يكن لهم من شاغل سوى حفظ ما ينزل من كتاب ربهم ، وفي المدينة اتسعت حركة الجماعة وانشغل بعضهم في بناء الدولة الجديدة ومشاكلهم ، فكانت الدواعي للكتابة في المدينة أكثر منها في مكة ، هذا مع يقين وصحة وسلامة الذين حفظوا القرآن الذي نزل في مكة ، وصحة التواتر لما حفظوه ووقوع التسجيل والكتابة والتدوين لما حفظ ورسول الله : راجع عليهم مما دونوه .

هذا .. ويجب ان تقرر حقيقة يعرفها المشتغلون بعلوم القرآن دون غيرهم

وهي أن الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، أو الذين كانوا يتابعون الوحي الالهي الذي ينزل على رسول الله ، ويتلقونه منه بالتبليغ حفظاً واستظهاراً كانوا كثرة كثيرة تتجاوز المئات بل الألوف ، كل ما يشغلهم أنهم يرددون آيات ربهم أثناء الليل واطراف النهار في المسجد ، اذا ذهبوا الى الصلاة فقبل الصلاة بوقت كبير يقرأون القرآن وبصوت مسموع ، وفي الليل يتعبدون به في صلواتهم ، ويقومون بتعليم أولادهم وأزواجهم لما يحفظونه من كتاب الله ، أي أن آيات الذكر الحكيم لم تكن بين جماعة محدودة أو فئة بعينها تستطيع ان تفعل في النص الذي بين ايديها ما تشاء ، وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن الصحابي الجليل ابي موسى الاشعري من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمر بالليل بنفسه على دور أصحابه في الاوقات التي كانوا يقرأون فيها القرآن الكريم ويتسمع لاسلوبهم في قراءة النص الحكيم ، وللوقوف على مستوى حفظهم واستظهارهم لكتاب ربهم ما يكشف لنا من مدى الدقة التي كان عليها المسلمون في حفظ واستظهار كتاب ربهم في صدورهم ، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه لهم ليقف على مستوى حفظهم لآيات الله تعالى .

فلقد اخرج البخاري عن ابي موسى الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم لو رأيتمني البارحة ، وأنا أستمع لقراءتكم ؟ لقد اعطيت مزامراً من مزامير داود .

والامام المسلم في صحيحه يؤكد هذه الرواية بالاضافة المنسوبة الى ابي موسى في رده على الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : لو علمت والله يا رسول الله انك تستمع لقرائتي لحبرته لك تحبيراً .

ومع كل خصائص ومقومات المجتمع المسلم في عهد النبوة وخصائصه المتفوقة في الحفظ والاستظهار ، حتى أن سبعين حافظاً للقرآن كله قد استشهد

في معركة (اليمامة) وحدها وهذا يبين عن حجم الكثرة الكثيرة التي تحفظ كتاب الله فانا نحب ان نؤكد أنه من اليقين علماً بكل معايير الضبط العلمي أن القرآن الكريم كله قد كتب ودون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وتحت اشرافه ، وكل ما في الامر أنه لم يكن جميع القرآن المكتوب مجموعاً في مكان واحد من أدوات الكتابة التي كانت يومها ، فان الصحابي الجليل زيد بن ثابت يحدث في هذا ويقول عن القرآن : (وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن جمع في شيء) .

هذا ونحب أن نقرر في غير تعصب ، أنه لا يوجد كتاب على ظهر الارض حتى الكتب التي بين ايدينا والمنسوبة عند أصحابها على أنها من الكتب السماوية لقي من العناية والرعاية والاهتمام من أتباعه مثل ما لقيه (القرآن الكريم) .

لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن محفوظ في صدور مئات الرجال وكل منهم يعرف ما يحفظه الآخر ، ومسجل في بطون الوثائق الحافظة ، وحين انقطع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان في عنف هذا الحديث الضخم الذي تعرض له المسلمون بموت النبي صلى الله عليه وسلم دافعاً قوياً لأن يقبلوا على ما في أيديهم ، وهو كتاب ربهم ليجدوا فيه كل ما يحتاجون اليه وما قد يستعوضون به في موت نبيهم ، ولم يمض وقت طويل أو قصير على موت الرسول صلى الله عليه وسلم واذا بالخليفة الصديق رضي الله تعالى عنه يقوم على أمر جمع جميع الوثائق التي دون فيها الذكر الحكيم لتحديدتها في يد (السلطة الجديدة) المسؤولة عن الاسلام والمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي أن الرجال الذين كانوا يحفظون كتاب ربهم والأدوات التي كان قد دون فيها الذكر الحكيم لم يتعرض أي منهما لموقف مناهض أو لسلطة أجنبية أو لحاكم يقاوم الفكرة التي عندهم النص الذي بين أيديهم مثلما حدث للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد — كما أثبتنا ذلك

في حينه — من القسم الأول من الرسالة ، ولم يكن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه منفرداً بها. العمل ، بل اندفع اليه يعاونه فيه الخليفة العادل عمر بن الخطاب وعلى مسمع ومشهد من قيادات المجتمع الاسلامي المستنير اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم .

والامام البخاري يحدثنا في هذا الامر بالعدل فيقول : (عن زيد بن ثابت قال بعث اليّ ابو بكر — لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر — فقال ابو بكر ان عمر جاءني فقال : أنه استحر يوم اليمامة لقراء القرآن واني اخشى ان يستحر القتل بالقراء في كل المواطن ، فيذهب من القرآن كثير ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قال قلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدرى للذي شرح الله صدر عمر ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد ، فقال لي ابو بكر انك رجل عاقل لا تنهملك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فأجمعه قال زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ما أمرني به من جمع القرآن ، فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابو بكر هو والله خير فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر ابي بكر ، قال فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والعسق والخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة (التوبة) مع (ابي خزيمة الانصاري) ، فلم اجدها مع احد غيره : لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . فألحقها في سورتها .

وهنا قد يبرز سؤال أو يثيره الحاقدون على كتاب ربنا وصحة وسلامة تاريخه منذ نزل على قلب نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم يقوم الناس لرب العالمين وهو : لماذا لم يجمعه الرسول بنفسه في مصحف واحد ، ان كان

قد تم كتابته في حياته صلى الله عليه وسلم ؟ والجواب عليه بسيط ويسير وهو أن القرآن الكريم نزل مفزقاً كما هو معروف ولا يمكن جمعه قبل أن يتكامل ، وبعض الآيات قد لا يطرأ عليها أثناء فترة الوحي النسخ كما حدث فعلاً ، فكيف يجمع في مصحف واحد قبل أن يتكامل النزول ويعرف المنسوخ ثم أن ترتيب الآيات والصور لم يكن حسب نزول بل أن كثيراً من الآيات التي نزلت في أواخر الوحي كان ترتيبها في أوائل السور ، وهذا يقتضي التبديل والتغيير ، فكان لا بد من الانتظار حتى يتكامل نزول القرآن كله ، وبعد ذلك فإن الفترة التي كانت بين آخر آية وبين وفاته صلى الله عليه وسلم كانت قصيرة جداً ، فلم يكن هناك من الوقت ما يسمح لجعله صلى الله عليه وسلم في مصحف واحد .

هذا .. ولقد استغرق نزول القرآن الكريم معظم فترة الدعوة الإسلامية كلها خلال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم سواء في مكة أو المدينة وهي مسافة في حساب الزمن ليست يسيرة تقترب من ثلاثة وعشرين عاماً .

وفي محاولة لتأكيد هذه الفترة نرى الامام البخاري وهو يحدثنا فيما روي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالوا : لبث النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشرأ .

وفي خلال الفترة كلها منذ نزل القرآن الكريم كان يتم ترتيب التنسيق للآيات القرآنية في مواضعها التي هي عليها الآن دون تدخل من أحد من المسلمين اصحاب رسول الله بل ولا من الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم ، اقول لم يحتجده الرسول في هذا الترتيب ولم يعمل عقله أو فكره ، وإنما هذا الترتيب الذي بين أيدينا في كتاب الله تعالى والذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم بالهيئة التي انتهت إلينا على هذا الشكل الذي بين أيدينا توقيفي ، أي هو هكذا من الله سبحانه وتعالى الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل الأمين .

وعندنا نحن المسلمين من الدلائل والقرائن والمستندات الدينية والتاريخية ما يؤكد هذا المعنى وما يقرره ، وهذا ما هو عليه المسلمون والى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

روى احمد باسناد عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ بشخص يبصره أتى صوبه ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن هذه الآية في هذا الموضوع من هذه السورة : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى الآية : ويروي القرطبي بسندة عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) فقال جبريل : يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

وبناء على هذه القرائن وأمثالها كثير جداً في التدليل على أن ترتيب القرآن انما هو توقيف يتأكد لنا أن ترتيب القرآن الكريم انما هو عمل من الله عز وجل ولا دخل لاحد من البشر فيه .

هذا .. ولقد أثير سؤال قديم حول الكيفية التي رتب بها الآيات ومراحل نزولها مختلفة ومتعددة ، وهناك في الترتيب تقديم وتأخير لبعض الآيات لم تكن حسب مراحل نزولها وحتى مثل هذا السؤال غير ذي موضوع ولا قيمة له في قدسية وطهارة التدوين القرآني لان من يؤمن بأن القرآن الكريم قرآن من عند الله ، يؤمن بأن هذا الترتيب بهذا الشكل الذي انتهى الينا قد تم من قبل من لا يستطيع بشر مخلوق مؤمن أن يسأله لما كان هكذا وهو الله سبحانه منزل القرآن وواضعه بهذا الترتيب ، وفي هذا يروي الامام القرطبي عن ابن وهب فيقول : (سمعت سليمان بن بلال يقول : سمعت ربيعة يسأل ، لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وانما نزلتا بالمدينة ، فقال ربيعة : قدمتا والّف على علم ممن الف .

ومن هنا لا بد من الايمان بان ترتيب الآيات والسور في المصحف الذي بين أيدينا كما سبق القول عمل توفيقى من الله عز وجل ولا دخل لبشر فيه ، ذلك لأن علم محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن يتجاوز غير ما يمليه عليه الوحي وما يبلغه به رب العالمين .

هذا .. وقد جمع القرآن للتدوين بهذا الشكل الذي بين ايدينا في عهدين متقارين : العهد الاول (عهد النبوة) أي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشرف عليه في حياته والوحي الالهي يتابعه ، وتم جمع القرآن بالاسلوبين الذين أشرنا اليهما : الأسلوب الاول بالحفظ والاستظهار في قلوب الرجال وكانت ملكات الحفظ عندهم فريدة يتميزون بها عن غيرهم من الامم والشعوب وتم التواتر والمقابلة فيما بينهم لابرار ما يحفظونه ورسول الله بين ظهرانيهم .

والاسلوب الثاني الذي تم به جمع القرآن هو كتابته في الاوراق والصحائف وايداعها في مكان أمين جداً ولم يكن غير بنيه عليه السلام فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متخصصين في كتابة الوحي كلما نزل عليه شيء من القرآن أمرهم بكتابته زيادة في التثني والضبط والاحتياط في حفظ كتاب الله .

وطريقة الكتابة التي كانوا يكتبون بها هي أنهم كانوا يحضرون جريد النخل المسمى (العسق) ويكشطون الخوث ويكتبون في الطرف العريض ، أو يكتبون على صفائح الحجارة وهي المسماة (بالخاف) أو يكتبون على الرقاع وتكون من جلد أو ورق ، أو يكتبون على قطع الأديم وعظام الاكتاف وغيرها لان صناعة الورق لم تكن كما هو معروف من الزيوع بحيث تكون قد وصلت أرض العرب ، فضلاً عن أنهم لم يكونوا قبل الاسلام في حاجة جوهريه اليه .

هذا .. وقد روي عن زيد بن ثابت أنه قال : (كنا عند رسول الله عليه السلام نؤلف القرآن من الرقاع أي نجمله من الرقاع) .

والزرقائي في (مناهل العرفان في علوم القرآن) يقول : (وكان هذا التأليف عبارة عن تركيب الآيات حسب ارشاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، فقد ورد أن جبريل كان يقول : ضعوا كذا في موضع كذا) .

وفي تقديرنا أن أهم عمليات جمع القرآن في العهد النبوي كان ذلك الأسلوب العظيم الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يشرف عليه بنفسه ، وهو حفظ القرآن وجمعه في الصدور ، فقد كانت همّة النبي منصرفة الى حفظه واستظهاره ليحفظه كما نزل عليه وليقوم بالاشراف على تحفيظ المسلمين له ، وكان صلى الله عليه وسلم بناء على توجيهات ربه يحيي الليل بتلاوة القرآن تدبراً وعبادة واستذكاراً عملاً بقوله تعالى له صلى الله عليه وسلم : (يا ايها المزمع قم الليل الا قليلاً نصفه او انقص منه قليلاً او زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً) (ولا عجب اذن أن يكون صلى الله عليه وسلم سيّد الحفاظ ، وحتى تطمئن الانسانية كلها — علمياً — الى سلامة وكمال رب العالمين وصحة وسلامة تدوينه في القرآن الكريم ، كان الوحي الالهي من خلال جبريل الامين يراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما نزل عليه من القرآن عام مرة ، وهكذا كل سنة ، وفي السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أن تم القرآن كله حفظاً وكتابة ثم بعد أن شاع حفظه في صدور مئات من الرجال على غرار ما يحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، راجع الوحي (جبريل) رسول الله صلى الله عليه وسلم في جملة القرآن الكريم كله حفظاً واستظهاراً مرتين ، ولقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مطمئن تماماً الى صحة وسلامة المقابلة في الحفظ والاستظهار التي كانت بينه وبين اصحابه ممن يحفظون كتاب ربهم .

يقول عبادة بن الصامت الصحابي الجليل الذي كان بين القيادات الاسلامية

التي فتحت مع عمرو بن العاص مصر : كان الرجل اذا هاجر دفعه النبي الى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة عالية من كثرة الذين يتاون القرآن حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه أن يحفظوا أصواتهم لئلا يتغالطوا . ولم نذهب بعيداً ونستدل برواية واحدة ؟ ألم يكن في جيش المسلمين في معركة اليمامة كما قلنا عدداً من (القراء) الحفظة الذين استشهد منهم وحدهم حوالي سبعين شهيداً ، ومن قبل اليمامة ألم يستشهد عدد كبير من جمهور الحفظة في حادث (بئر معونة) في أرض بني سليم وأرض بني كلاب (١) ، ويتضح لنا الآن من كل هذا وأمثاله أنه لم تكن هناك من الدواعي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ما يقتضي كتابة القرآن الكريم في (مصحف واحد) فالمسلمون كان بينهم الحفظة وهم كثرة وبخير والقراء كثيرون ، ولا توجد فتن ، وليس هناك لبس أو غموض بين حافظ وآخر وكان الاهتمام الاسلامي بتداول القرآن والتعرف عليه يعتمد على الحفظ خاصة وان العناصر التي تحفظ كتاب ربها ، كان بينهم كثرة كثيرة لا تعرف القراءة والكتابة ، والقرآن بعد أن ملك قلوبهم وسيطر على عواطفهم كانوا يتسابقون الى حفظه ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم توثقاً واحتياطاً وضبطاً ، امر بكتابة القرآن بالاسلوب الذي أشرنا اليه ، ومنذ العهد النبوي ، والقرآن الكريم ينسخ في صحائف بشكل علمي وديني في منتهى الدقة والكمال ، وما علينا الا ان ننظر المرحلة الثانية من جمع الذكر الحكيم وكيفية كتابته وهي مرحلة الجمع والنسخ في عهد الراشدين رضي الله عنهم .

(ب) ما الذي حدث بالقرآن في عهد الراشدين ؟

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتولية ابي بكر رضي الله عنه أمور المسلمين تعرضت الدولة المسلمة لزلزال سياسي ، ولعمليات انقضا من

(١) (سيرة ابن هشام) القسم الثاني من الطبعة المشار اليها ص ١٨٥

أعدائها وعمليات ردة عن الاسلام من بعض اتباعها ، وكان أخطر تلك الشدائد والمصائب الحروب التي خاضها المسلمون ضد اتباع مسيئة الكذاب ، ولقد استبسل المسلمون في هذه المعارك ضد المرتدين ، حتى كان بين الجيوش الاسلامية التي تقاتل مئات من حفاظ كتاب الله تعالى ، وأمام ضراوة المعارك التي تعرض لها المسلمون خاض الحفاظ بدافع من ايمانهم كل المعارك وتقدموا الصفوف حتى سقط منهم الكثيرون ، وقد أدرك الخليفة الجليل ابي بكر خطورة استشهاد عدد كبير من الحفاظ ، وخاصة من أولئك الذين حفظوا كتاب الله عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى زيد بن ثابت كما أشرنا وهو أحد كبار كتّاب الوحي الذين رضيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للكتابة والتسجيل ما كان ينزل عليه به جبريل عليه السلام من القرآن .

ولقد كان لزيد بن ثابت - رضي الله عنه - مؤهلات ومواصفات - لا تتوفر الا فيمن أعدّه الله سبحانه لمثل هذا العمل الجليل فقد كان مشهوراً بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتقوى والورع فضلاً عن العلم والفقه وكان من كتبة الوحي الملازمين لرسول الله ، فلم يكتب الوحي مرة أو مرتين وانما كان ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هنا أتيح له أن يحفظ في صدره من رسول الله مباشرة حتى أنه استطاع في ضبط تام ومقابلة كاملة أن يعرض القرآن كله محفوظاً في صدره على النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التي انتقل فيها النبي الى ربه ، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت في ريعان شبابه وقوته ، ومن هنا كان عنده الجلد والقوة والصبر الذي تمكن به من تحمّل هذا العمل العظيم .

ومع ان زيد بن ثابت رضي الله عنه قد استعان بمجموعة ظاهرة من أصحاب رسول الله عليه السلام ومن اشتهروا بحفظ القرآن عن رسول الله ولم يؤخذ على واحد منهم ، أنه كان ينسى شيئاً من كتاب الله او يلتبس عليه

نص بنص ، الا أن زيداً من شدة حرصه على كتاب ربه ، وبناء على توجيهات أبي بكر رضي الله عنه كان لا يدون ما يحفظه وما يحفظه معه أصحابه الا اذا رأوه مكتوباً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبشرط ان يشهد شاهدان بانهما رأيا ذلك المكتوب الذي املاه رسول الله بنفسه ، وبانهما شاهداه بانفسهما في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهنا يجب ان نلاحظ شيئاً مهماً جداً يهتم به علماء التاريخ وهو ما تميز به تاريخ تدوين نسخ من كتاب الله وجمعها في مصحف وهو أن دولة الدعوة هي التي اشوف وعلى مرأى من الرأي العام وتحت اشراف ، ذوي الاختصاص على تسجيل كتاب الدعوة والدولة ، أي أنه بالمعيار التاريخي فان كتاب الله تعالى يتميز بخاصية لم تتح لكتاب مثله على الارض حين دون ، وخاصة اذا قورن بما سبقه من كتب تعرضت للحذف والتحريف والاضافة في ظل تدوين اعدائها لها وفي غيبة المؤمنين بها أو وقوعهم تحت قهر أعدائهم .

ولقد انتهى زيد في عصر أبي بكر رضي الله عنهما وهو عصر قريب جداً من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تجميع آيات القرآن كلها ، بهذا الاسلوب الذي لا يوجد له نظير في العالم حتى اليوم ، ولقد كان منهجاً فريداً حقاً أن يكون زيد نفسه حافظاً لما يكتبه ، ثم ان يكون غيره يحفظ ما يحفظه زيداً ثم أن يكون ما يحفظه هو وغيره مكتوباً املاً في عصر النبي وفي حياته وباملائه صلى الله عليه وسلم ، ثم يشهد شاهدان على أنهما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يملئ هذا النص الذي يحفظه هذا الجمع المحتشد والمشرف على صحة وسلامة تدوين كتاب الله . ومن هنا يبدو واضحاً تماماً فضل الله على خلقه حين هيا لهم كل هذه الامكانيات في حفظ كتابه الخاتم .

وقبل ان ندع هذه النقطة بالذات نحب ان نقرر ان زيداً رضي الله عنه لم يكن عمله في كتابة (القرآن الكريم) يتعدى البحث والتحري عن العظام

والرقاع التي كان قد كتبت عليها الآيات القرآنية باملاء النبي صلى الله عليه وسلم وأن الدقة التي شاعت في الجوا الاسلامي حول مهمة زيد بن ثابت واصحابه جعلت الرأي العام المسلم حولهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكاد يشترك معهم في الدقة والضبط والتحري وتقديم المزيد من الدلائل التي بين ايديهم ، خاصة وأن المجتمع الاسلامي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاش افراده حوالي ربع قرن من الزمان وآيات الذكر الحكيم تتلى في صلواتهم وفي عباداتهم ، وكانت قيمة الرجل في مجتمعه تقوم على مقدار ما يحفظه من كتاب الله ، نستطيع ان نقول حتى ضوء ما يذهب اليه الذين يهتمون بقواعد البحث التاريخي ، ان القرآن الكريم في مرحلة تدوينه وتجميعه في عهد ابي بكر لم تكن آياته الكريمة حكراً على مجموعة من الناس أو أن أمره كان في طي الكتمان ، أو أن بعضه كان لدى البعض والبعض الآخر في خفاء الكهانة ووراء المحاريب وفي غيبة السنين بحيث يمكن تصور الزيادة والنقص في مادة الكتاب الكريم ، بل لقد كان أعداء المسلمين ممن سرت اليهم أخبار الذكر الحكيم يودون أن يقع المسلمون في خطأ أو يفوت عليهم شيء من كتاب ربهم ليوجهوا كل حقدهم نحو الكتاب الحكيم ، ولم يحدث أبداً في عصر تدوين القرآن الكريم أن وجد في المجتمع من يطرأ على تفكيره احتمال ان يقصر القائلون على امر كتاب ربهم تدويناً وتسجيلاً ونسخاً في أمر من الامور .

هذا .. ونحب أن نضيف هنا أن الرسم والشكل الذي كانت عليه اللفظة العربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة تدوين القرآن هو الذي كان يحرص عليه زيد بن ثابت تماماً ، ذلك أنه كانت عناية زيد بن ثابت تتجه في حرص شديد على أن تكون كتابته للفظ على ضوء الرسم والشكل الذي كتب به النص القرآني باملاء الرسول عليه السلام في عصره ، وهو الامر الذي كان

يدفع زيداً على أن يطلب شاهدان يشهدان أنهما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمليه .

هذا .. وقد كان ايمان المؤمنين الذين يحفظون شيئاً من كتاب الله يدفعهم الى أصحاب رسول الله الذين يعاونون زيداً في مهمته العظيمة ، ويطلعون على ما انتهوا اليه أولاً بأول ، ولو كان ما انتهى عليه زيد بن ثابت وأصحابه قد أضيفت اليه زيادات أو تعرض لنقص — لنقل اليها — ولتداولته الاجيال لان العملية كانت تتم في جو عام فضلاً عن أن أصحاب رسول الله رضي الله عنهم لم يكونوا ليقرؤا زيداً واصحابه لو كان في الامر ما يريد أو وقع منهم تقصير .

هذا .. ولا بد ان نقرر هنا أن عناصر من غير المؤمنين كان من الممكن أن تكون قد حفظت شيئاً مما انتهى اليهم من هذا القرآن ، وكانت تتمنى أن يقع أصحاب رسول الله من الذين يعاونون زيداً في خطأ عدم الثبوت أو عدم سلامة وصحة التواتر الذي تتميز به عملية تدوين الذكر الحكيم ، ولم يحدثنا التاريخ فضلاً عن رواة علوم القرآن ولا علماء سيرة اصحاب رسول الله أن شيئاً من هذا قد وقع ، ولم يحدثنا التاريخ ايضاً على كثرة من فيه من أعداء كتاب الله أن أحداً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ممن انتهى اليهم شيئاً من كتاب الله لم يجدوه فيما سجله ودونه زيد بن ثابت ومن معه ولم يحدث في تاريخ العالم على ضوء ما رأينا في عملية التجهيز لبدء تجميع القرآن الكريم أن لقي كتاب من العناية والاهتمام والقداسة عند المؤمنين به ما لقيه القرآن الكريم باعتبار انه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وصدق الله العظيم اذ يقول : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

الفصل السادس

قصة المصاحف والقراءات السبع :

قلنا ان الخليفة الجليل أبي بكر رضي الله عنه قام بعد اتفاق الخاطر بينه وبين الفاروق عمر بتكليف زيد بن ثابت بالقيام بمهمته العظيمة ، حتى انتهى من جميع آيات الله من صدور المؤمنين مطابقة مع ما دون في عهد الرسول وباملائه واصبحت كلمات الله بين الجمع فيه (مصحف) يمكن الرجوع اليه دفعة واحدة .

ومع ان الفترة الزمنية التي عاشها الخليفة الصديق بعد وفاة رسول الله قليلة لا يمكن ان تتعرض النسخ التي جمعت آيات الذكر الحكيم في مصحف واحد للتلف او التمزق ، الا ان الخليفة العادل أمر هو الآخر في فترة خلافته النظيفة والتزينة ان تنسخ المصاحف مرة أخرى وبمنهج أضاف به الفاروق الى مآثر ودقة اصحاب رسول الله ممن عاونوا زيد بن ثابت مأثرة أخرى ، وهو أنه كان يراجع ما في صدور الرجال - الحفظة - على ما في العسق واللحف والعظم من آيات الله الي كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد املاها بنفسه على النسخ الي كتبت في عهد ابي بكر الصديق حتى تم جمع القرآن وتدوينه مرة أخرى ثم كلف الفاروق عمر أم المؤمنين (حفصة) رضي الله تعالى عنها ان تحفظ في بيتها مصحفاً كامل التدوين والجمع مدون بالشكل والرسم الذي انتهت اليه النسخ التي جمعها زيد في عهد أبي بكر وتأكدت سلامتها وصحتها وجمعها لآيات الذكر الحكيم في عهد

الفاروق وكانت هذه النسخة او هذا المصحف المحفوظ عند ام المؤمنين (حفصة) هو المرجع الالهم ، بل المصدر الامام الذي رجع اليه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد ذلك حين كان يدون نسخه الشهيرة الذي تداولته الامصار وبعث به الى كل الديار .

وقد يمتلي المرء بالدهشة لحكمة الحكيم العليم الذي تعهد بحفظ كتابه الكريم وصيانيته بقوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) لذا علم ان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قد أمر امرأة اسمها (الشفاء) بنت عبد الله العدوية ان تعلم زوجته حفصة ام المؤمنين الكتابة والقراءة وبالفعل كانت حفصة رضي الله عنها تكتب وتقرأ ، وكان الله سبحانه بما فعل نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم من تعليم حفصة القراءة والكتابة كان يعدها ويدربها لتكون حارساً وحافظاً اميناً لما أودعه الله عندها ، بفعل امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، حتى لا يجيء مأفون او عدو مختل او صاحب حس متبلد وقلب ميت ويطعن في امكان حفصة الحفاظ على كتاب الله من عدو حاقداو محرف لثيم ، وفوق هذا ، فان بيت أم المؤمنين ، لم يكن يدخله الا كل بسر وتقي مؤمن ، فضلا عن اصحاب رسول الله ، ومن هنا فان الخليفة الورع (عثمان بن عفان) رضي الله عنه كان محتماً وكان بصيراً يوم وفقه الله تعالى ، ان يجعل من تدوينه الشهير نسخاً مشيتة بالجمع والنشر معتمدة بالصدق والاقرار من اصحاب رسول الله مرجع هذه النسخ واملأوها راجع نهائياً على (المصحف الامام) الذي كان في بيت ام المؤمنين حفصة رضي الله عنها ، حتى أن الخليفة الورع رضي الله عنه قد أمر بحريق هذا المصحف الامام بعد وفاة السيدة (حفصة) أم المؤمنين رضي الله عنها وذلك بعد ان استأذنته أن يبقي هذا المصحف في بيتها حتى وفاتها ، وخشية من تمتد يد الى هذا المصحف الذي كان في بيت حفصة بعد وفاتها أمر

الخليفة عثمان بن عفان ان يحرق بعد وفاتها وان يرجع الى النسخ التي تم نسخها من (المصحف الامام) ، واعتمدها الخليفة عثمان رضي الله عنه بخاتم الخلافة حين ارسلها الى الانصار ، وقد تم بالفعل حرق المصحف الذي كان عند حفصة رضي الله تعالى عنها بعد أن شاعت النسخ التي نقلت عنه واعتمدها الخليفة رضي الله عنه بخاتمه (١) .

ب) لماذا كان مصحف عثمان ؟

من الحقائق اليقينية المستقرة في قلوب وعقول المشتغلين بالقرآن وعلومه ، ان التدوين الذي تم في عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما للقرآن الكريم كان الهدف منه ان تكون آيات القرآن الكريم مصانة ويمكن الرجوع للنص اذا اراده أحد من المسلمين ، لكن التلاوة للذكر الحكيم كانت هي الشغل الشاغل لجموع المسلمين وصفوتهم وظلت التلاوة كما كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت تتلى من افواه الرجال مرتلة بنفس الاداء الذي سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبذلك كان القرآن الكريم محفوظاً في صدور الرجال بطريقة ادائه التي تعلموها من النبي ، ولا بد فيها من المحاكاة والتدرب ، وبالتدوين الذي شاع في مرحلة الجمع في عهد ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ، لكن الذي حدث بعد ذلك أن النص المكتوب الذي تم تداوله في عهد ابي بكر وعمر رضي الله عنهما اطلع عليه المسلمون في الامصار البعيدة ممن لم يسمعه مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من أصحابه ، لم يكن مشكلاً ولا منقوفاً فطراً على السنة البعض لحن في نطق للذكر الحكيم وأدائه ، وخاصة انه قد أجز في أول نزول القرآن الكريم أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب كلها

(١) (عبدالله خورشيد البري) القرآن وعلومه في مصر ٢٠٠ - ٣٥٨ هـ دار المعارف بمصر

كلها يمينها ونزارها فكان ذلك مدعاة لقلق وخوف الاجلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون اللحن في نطق الذكر الحكيم مدخلا للطعن في سلامة كتاب الله تعالى ، ومن هنا رأينا الصحابي الجليل (حذيفة بن اليمان) عندما رجع من غزوة (ارميمة) وكان قد وقع خلاف بين أهل العراق وأهل الشام حول ما لديهم من كتاب الله حين كانوا ينطقونه ، يدخل على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قبل أن يدخل الى أهل بيته في المدينة ويقول له : (يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ، قال عثمان : فبماذا ؟ قال : في كتاب الله : أني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناساً من العراق والشام والحجاز ، ثم وصف له حذيفة رضي الله عنه مخاطر الاختلاف الذي وقعوا فيه حول ما لديهم من كتاب الله ، وقال حذيفة بن اليمان لأمر المؤمنين عثمان بن عفان : اني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتاب ربهم كما اختلف اليهود والنصارى .

ولقد روع أمير المؤمنين لهذا الخبر وحين شاع الخبر في المدينة فزع له مع أمير المؤمنين صفوة أصحاب رسول الله وعامة المسلمين ، ولكن فزعهم دفعهم بل وعياً مشاعرهم وشحنهم همهم للعمل : لقد أمر على الفور الخليفة عثمان رضي الله عنه باحضار النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين (حفصة) لتكون كما قلنا الامام والمرجع الذي يرجعون اليه فيما هم مقدمون عليه ، هذا اذا لم يتسع لهم أن يجمعوا كتاب الله من صدور المؤمنين ومن مصادره المدونة ، وحتى يتأكد أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو الآخر من أن كتاب الله يوجد سليماً في الصدور ، وما تركه رسول الله هو على ما هو عليه أمر بأن تحفظ نسخة (حفصة) لا يطلع عليها أحد ، ليتمكن الرجوع عليها بعد انجاز العمل الذي قرر أن يقوم المسلمون به ، ويشاء الله الرحمن الرحيم أن يوصد الباب تماماً أمام مفتريات أعداء كتابه

الكريم ، وحتى لا يطعن طاعن ، أو يتقول دعي في ذمه رجل غير معروف أو غير ثقة لجمهور المسلمين فيكون (زيد بن ثابت) — مرة رابعة — الرجل الثقة الثبت الورع التقى صاحب رسول الله وأمينه على تدوين الذكر الحكيم لا يزال حياً بعد مرحلة طويلة قام فيها بتدوين الوحي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وباملائه ثم تدوين أبي بكر وعمر وجمعهما ، ثم في عصر عثمان رضي الله عنه ، ولقد كان من فضل الله على هذا الرجل أن كان في حالة صحية تمكنه من أن يساهم في العمل العظيم المقدم عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .

(ج) ما الذي حدث بالقرآن الكريم ؟

حين نزل القرآن الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم أجزى للرسول عليه السلام أن يقرأ للناس على لغات سبع من لهجات العرب كلها ، لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، كما هو معروف ، لم يكن يجهل شيئاً منها ، ويؤكد هذا القول رواية البخاري التي تقول أن القرآن نزل سبعة أحرف نسخت ست وبقيت واحدة وفي تقرير هذا المعنى يروي مسلم عن أبي كعب ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند اضاءة بني غفار وهو (غدير صغير عندهم) فأناه جبريل عليه السلام فقال : أن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف ، فقال أسأل معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك . ثم أناه الثانية ، فقال إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرفين ، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرء أمتك ثلاثة أحرف ، فقال أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تقرء أمتك على سبعة أحرف فأبما حرف قد قرأوا فقد أصابوا) .

والذي نود أن نلفت اليه : هو أن السبع لغات او السبع لهجات المشار اليها لم تكن الا في قراءة القرآن الكريم . أما في كتابته فبالشكل والرسم الذي املاه الرسول ودون في عهده ، حتى انتهائه الينا اليوم والمشتغلون بعلوم القرآن الكريم يذكرون تماماً قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هشام بن حكيم ، حيث كان يقرأ بعض آيات الذكر الحكيم ينطق . لم يسمعه عمر ، فأخذه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقر الرسول ما قرأ هشام وأقر ما قرأ عمر ثم قال : ان هذا نزل على سبعة أحرف .

وهذه الواقعة ذات دلالات عديدة ابسطها انها تكشف لنا مدى حرص ودقة وثبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتاب الله حتى لا يتعرض لطعن أو تحريف ، وهنا قد يثار سؤال : ولماذا لم يكن القرآن الكريم بادىء بدء بلغة واحدة ولهجة واحدة ينضوي تحت لوائها الجميع ؟ وهذا السؤال يضعنا أمام ضرورة التعرف على لغة العرب قبل الاسلام فقد كانت فيهم اللهجات المضرية والنزارية والريعية والقريشية وغيرها ، فضلاً عن المعنى الذي استهدفه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه لجبريل ، ففيما روى الترمذي عن أبي بن كعب قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل اني بعثت لامة أمية ، منها العجوز والشيخ الكبير ، والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط ، فقال لي يا محمد : ان القرآن أنزل على سبعة أحرف والذي نبغي أن نقرره هنا أن سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه المعانة .. والمغفرة في أن تكون قراءة القرآن الكريم في بدء أمر الوحي في أكثر من لهجة وعلى أن لا يكون على لهجة واحدة ، ثم حديثه مع جبريل يشرح حال أمته في أنها لا تقدر وهي متعددة اللهجات أن تستوعب جماعة منها روح كتاب الله بلهجة غير التي تحيا عليها وتعيش بها كان يقصد به في بدء

أمر الوحي ومراحل التدوين ، تدريب الامة تدريجياً على اللهجة الام حتى تستقيم سنتهم ويتعرفون على اللهجة التي ينطق بها نبيهم ، ولقد كان الصفوة من أبناء جميع القبائل العربية تتدرب على لغة قريش ، وهناك شبه اجماع على أنها اللغة الام لأنها بالفعل كانت لغة الادب ، التي سجل بها العرب مفاخرهم وأمجادهم وحافظوا بها على أخلاقهم ومقدساتهم ، وكان الاختلاف الذي طرأ بعد ذلك في قراءة بعض الآيات بين أهل الانصار وخاصة في تلك المراحل التي لم يسمح فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لكبار الصحابة من مغادرة المدينة ورغبة في أن يبقوا بجواره للمعاونة والمشورة ولأسباب أخرى رآها ابن الخطاب رضي الله عنه لا يتسع المقام هنا لذكرها ، وكان هذا الاختلاف اليسر الذي طرأ في وجوه القراءات بين أهل الامصار مرجعة الى أن النسخ التي في أيديهم لم تكن مشكلة أو منقوصة ، فضلاً عن أن بعض الذين يقرأوا القرآن الكريم لم يكن تيسر لهم الاطلاع على نسخ بعض القراءات في العروضات الاخيرة التي عرضها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وعرضها النبي على جبريل عليهما السلام ، فما كان الاختلاف في القراءة المشهورة والمتداولة الآن في علوم القرآن ، انما كان الاختلاف في اللغات التي كان مرخصاً بها من عدمه .

ويجدر بنا حتى لا يقع بغض غير المشتغلين بعلوم القرآن في لبس أو حيرة حول معنى اختلاف اهل الاسلام في قراءة القرآن ، أن نبين بعض وجوه هذا الاختلاف ومثل هذا التبيين يكشف لنا عن مدى حرص ودقة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتاب ربهم .

قلنا ان الاختلاف الذي طرأ في بعض الامصار والذي ساعد عليه امساك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم أن يغادروا الحرمين وكان بعضهم قريباً جداً لرسول الله ويعلم أخبار ما نسخ ، فساعد ذلك على شيوع ظاهرة الاختلاف في قراءة النص المكتوب والمتداول ، فهو منقول بعد عهد أبي بكر بالشكل والرسم الذي هو عليه غير مشكل ولا منقوط فكانت بعض الآيات الكريمة تحتل أكثر من نطق وأكثر من وجه يتضح ذلك مثلاً في بعض الامثلة التي يسوقونها كدليل علماء القرآن الكريم مثل : (أنفسكم) بضم الفاء (أنفسكم) بفتحها ومثل (فتبينوا) بالباء بعد التاء والتاء بعد التاء وبعدها باء ثم تاء ، ومثل قوله تعالى في سورة السجدة : (الذي أحسن كل شيء خلقه) يقرأ باسكان اللام وفتحها في (خلقه) فالحجة لمن أسكن : أنه أراد الذي جعل عبارة يحسنون كل شيء ويحتمل أن يكون أراد المصدر الفعل الماضي والهاء المتصلة به في موضع نصب لانه كناية عن مفعول به ومعناه : أنه أحسن كل شيء خلقه فكونه على ارادته ومشيئته في كل شيء صنعه تدل باثارها على وحدانيته وحكمته ودليل ذلك قوله تعالى : (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) وعليها الحسن والقيح (١) ومثل قوله تعالى في سورة الاحزاب : (بما يعلمون خيراً) يقرأ بالباء والتاء فالحجة لمن قرأه بالباء أنه اتبع آخر الكلام أوله ودليله قوله تعالى : «(ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان بما يعملون خيراً) والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعله خطاباً من الرسول عليه السلام لهم في حال الحضور .

وللمشتغلين بعلوم القرآن الكريم عناية عظيمة بالتعرف على دلالات وأوجه قراءات القرآن الكريم فيقول الامام ابن خالويه في كتابه

(١) أنظر : (الحجة في القراءات السبع) للامام ابن خالويه تحقيق الدكتور عيد الغال سالم
مكرم صادر عن دار الشروق - بيروت عام ١٩٧١ من صفحات ٢٦١ - ٢٦٣

(الحجة في القراءات السبع) في قوله تعالى (والصافات صفا) فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا (يقرآن بادغام التاء في الصاد والزاي والذال وظهارها فالحجة لمن أدغم قرب مخرج التاء منهن والحجة لمن أظهر أن التاء متحركة ساكنة قبلها ، فالأظهار أحسن من الجمع بين ساكنين ، فان قيل ما وجه قوله : (فالتاليات ذكرا) ولم يقل تلوا كما قال (شفا) و(ذكرا) فقل : ان تلوت له في الكلام معنيان ، تلوت الرجل معناه أتبعته وجئت بعده ودليله قوله : (والقمر اذا تلاها) وتلوت القرآن اذا قرأته ، فلما التبس لفظها أبان الله عز وجل بقوله (ذكرا) لبيان المراد ها هنا : التلاوة لا الاتباع فان قيل ما وجه التأنيث في هذه الالفاظ فقل ليدل بذلك على معنى الجمع وقيل التاليات ها هنا : جبريل وحده كما في قوله : فنادته الملائكة .

وأيضاً نستطيع أن نرى في قوله تعالى في سورة (الصادقات) : (سلام على الياسين) أكثر من وجه من وجوه القراءات التي طرأت على النص الكريم ، فتقرأ بكسر الهمزة وقصرها واسكان اللام بعدها وفتح الهمزة ومدّها وكسر اللام بعدها ، فالحجة لمن كسر الهمزة أنه أراد : (الياس) فزاد في آخره الياء والنون ليساوي به ما قبله من رؤوس الآي ، ودليله ما قرأه (ابن مسعود) : سلام على الياسين) يريد (ادريس) والحجة لمن فتح الهمزة أنه جعل اسمين أحدهما مضاف الى الآخر ، معناه سلام على آل محمد عليه السلام .

وكما نرى فان هذه النماذج التي سقناها من وجوه القراءات التي استقر عليها علماء علوم القرآن كما هو واضح لا تمثل معاني متفاوتة أو متناقضة مع بعضها في نص الذكر الحكيم ، ولقد أمر اللهجات العربية التي ألفتها البطون العربية في بدء عصر الوحي انها كانت تنطق الذكر الحكيم بما يسعف

المراد عندها في فهم النص ، وما يستقيم في فؤادها حتى خشي الامام عثمان ابن عفان رضي الله عنه من الفتنة لتأويل النص الكريم وتباينه بعد ذلك فجمع اللهجات والناس جميعاً بما صنعه على لغة قريش .

ومع كل هذا بقي الاساس الاول في حفظ القرآن الكريم وتواتره هو : الحفظ في الصدور وذلك حتى لا يعتريه المحو والاثبات ، كما تعرضت له كتب أخرى عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولقد ساعد على أن تظل أهمية الحفظ للقرآن الكريم في الصدور واستظهاره لها المكانة الاولى هو ما أوثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أمر به المولى سبحانه من الترتيل للقرآن بقوله تعالى : (ورتل القرآن ترتيلاً) . (ورتلنا ترتيلاً) وذلك لا يتم الا اذا كان القرآن العظيم يقرأ على مقرأء يجيزه حفظاً وقراءة وترتيلاً ، خاصة وأن القرآن الكريم حين كتب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كان الرسول واصحابه يقرأونه بلغة قريش ، وما أجاز الرسول أهل الامصار البعيدة في قراءة القرآن بغير لغة قريش الا لاعطائهم فترة يتدربون فيها على النطق بلغة قريش .. ومن هنا كان وجود مقرأء يقرأ عليه النص الكريم ويحفظ الناس النص الكريم ضرورة يحرص عليها المسلمون ويرون فيها أمثلاً وأكرم الاعمال في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضلاً عن الامتثال لأمر الله .

(د) لماذا سمي القرآن قرآناً ؟

تميز الذكر الحكيم الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيه الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم بهذه (التسمية) وهي الاسم الغالب على التعريف بكتاب الله عز وجل ، وفي هذه التسمية ما يكشف عن أهم المميزات التي بها حفظ كتاب الله تعالى عن أن يمسه فكرر بشر أو يتعرض للنقص

والزيادة أو الحذف والاضافة . أما لماذا سمي القرآن قرآنًا ، فإنه من قرآن قراءة وقرآنًا يكون مصدرًا واسما . قال تعالى في سورة القيامة : (انا علينا جمعه وقرآنه) فهو ها هنا مصدر .

ويقول تعالى : (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا) فهو ها هنا اسم (١) .

والمراد بـ : قرأت قرآنًا أي قرأت قراءة فيقام الاسم ومكان المصدر كما جاء في قوله تعالى : (والله أنبتكم من الارض نباتا) .

وقد جاء في معنى تسمية القرآن قرآنًا : أنه جمع وضم السور والآيات ، وان حفظته يجمعونه ويحفظونه من قولهم : قرأت الناقة : اذا حملت الجنين .

هذا .. وقد جاء في لسان العرب : القرآن : التنزيل العزيز يقال قرأه قراء وقراءة وقرآنًا ، والثلاثة مصادر .

ويقول ابو اسحق النحوي : يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم : (كتابا) و (قرآنًا) و (فرقانا) .

وكما جاء كتاب الله تعالى المنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بلفظ (قرآن) جاء باسماء وصفات أخرى وكلها لا تخرج عن دلالة اللفظ والمعنى الذي تشيعه وتدل عليه لفظة (قرآن) : ومن هذه الاسماء (الفرقان) : والفرق يقارب الفلق في المعنى ، لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق بينما الفرق يقال اعتباراً بالانفصال ، يقول الله تعالى : (واذا فرقنا بكم البحر) : والفرق بكسر الفاء القطعة (٢) ومنه الفرقة

(١) أنظر : (نكت الانتصار لنقل القرآن) للامام ابي بكر الباقلاني تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . صادر عن منشأة المعارف صفحة ٥٦

(١) أنظر : (مع القرآن الكريم) . الكتاب الذي اصدره (الماؤولون العرب) وعند الاجابة النموذجية التي وضعها العالم الجليل فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى (بعنوان (مع القرآن الكريم . حول أسمائه وصفاته) . ص ٢٤

للجماعة من الناس والفرقان وأبلغ من الفرق بينما الفرق يستعمل في هذا المعنى وفي غيره ، يقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أي نوراً وتوفيقاً على قلوبكم يفرق به بين الحق والباطل .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى في سورة الانفال : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) وهذا اليوم في رأي أغلب المفسرين يوم (بدر) وهو أول يوم يفرق فيه بين الحق والباطل ، وبهذا المعنى معنى (الفرقان) بين الحق والباطل جاء (الفرقان) اسماً على كلام الله تعالى لفرقة بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصالح وغير الصالح في الاعمال ، يقول رب العزة : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذير) (١) .

هذا .. ويسمى القرآن الكريم : (البرهان) : والبرهان هو البيان للحجة المؤيد لها بالدليل ، يقال برد الرجل يبرّه ، اذا كان أبيض خالص البياض ، ومن هنا جاء التشبيه ببياض الحجة واشراقها ، كبياض الحق واشراقه ، يقول رب العزة في سورة البقرة : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) ويقول سبحانه : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبيناً) .

هذا .. ويسمى كلام الله تعالى (كتاباً) : يقول الراغب الاصفهاني : (الكتب) بكسر التاء الضم ، وفي هذا يقول العربي كتبت الاديم الى ضمنت الجلد الى الجلد بالحيطة والمقصود جلد القرية أو السقاة ، ومن ذلك جاء معنى الكتابة وهو ضم بعضها الى بعض بالحفظ .

فالاصل في الكتابة : النظم بالخط ويستعار كل واحد منهما للآخر ، ولهذا سمى كلام الله وان لم يكتب (كتاباً) : كقوله تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) (١) فالكتابة في الاصل مصدر ثم سمى الشيء المكتوب فيه كتاباً ، من ورق أو غيره فهم يعنون بذلك صحيفة فيها كتابة .

يقول الله تعالى في الكتاب بمعنى المكتوب : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم) .

ويقول الله تعالى في اليهود : (وأي منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) : ومعنى الكتاب الاول ما كتبه بأيديهم ومعنى الثاني (التوراة) ومعنى الثالث جنس كتب الله المنزلة .

هذا .. ويحيى قوله تعالى في سورة يونس : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ولا ريب فيه من رب العالمين) ليبين أن المراد بالكتاب هذا ، هو ما تقدم من جنس الكتب السماوية التي جاء القرآن الكريم مصدقاً لما سبق منها .

هذا .. ويحيى من أسماء القرآن الكريم اسم : (الحق) والحق المطابقة والموافقة لحكمة الخالق ، يقول رب العزة في سورة يونس (ويستمنونك) أحق هو قل أي روي أنه لحق) .

ويقول سبحانه : (وآمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم) .

ويقول سبحانه : (والذي أنزل إليك من ربك الحق) .

(١) المصدر السابق صفحة ٣٦

هذا .. ويسمى القرآن أيضاً (النور) ويسمى : (الوحي) .. فمن النور الذي يعين على البصر : نور الشمس يقول تعالى : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ومن النور الالهي الذي تعقل به البصيرة : أسباب الهدى والحق في قوله تعالى عن الايمان والحياة : (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الظلمات) . ويقول تعالى : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) . وأما الوحي حين يراد به القرآن الكريم ، فانطلاقاً من قوله تعالى في سورة الانبياء : (قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون) .

ومن أسماء القرآن الكريم أيضاً : (التنزيل) يقول رب العزة : (وانه لتنزيل رب العالمين) . ويقول سبحانه : (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته) . ومن بين سياق الذكر الحكيم يحى دلالات أسماء وصفات (القرآن الكريم) وكلها تدور حول معنى الهداية الى الله والتعرف عليه من خلال آياته كتابه الكريم .

هذا .. ويسمى الله كل ما يلقيه الى المختارين من عباده أعني الانبياء والمرسلين : (وحياً) لانه لا يفهمه ولا يعرف دلالته الا الموحى اليه من ربه .

وتجيء الآية رقم ٥١ من سورة الشورى لتوضح وتقرر هذا المعنى تماماً . يقول رب العزة : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بانه ما يشاء) .

وقد يرد الوحي من الله تعالى لغير الانبياء ، لكنه ليس بالضرورة أن يكون في دلالة المعنى المشتمل عليه الوحي الى أنبياء الله ورسله ، فمثلا جاء بمعنى الالهام في قوله تعالى في سورة النحل الآية رقم ٦٨ : (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذني من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون)

ولا يراد بالوحي الذي تشير اليه هذه الآية الكريمة الوحي في دلالة التي تتعلق بالانبياء والمرسلين .

وعلى ضوء ما قدمنا ومن معنى جمع الآيات التي قرأت وحفظت في صدور المؤمنين في سورها التي ضمت بعضها الى بعض تأكد اسم (القرآن) الذي جاءت العناية بتدوينه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد حفظه في الصدور والتعهد به في الصلوات وعند ما يذكر المؤمنين ربهم به ، وأصبح هذا الاسم علماً بالغلبة على كتاب الله الكريم .

هذا .. ومن الجدير بالذكر أن القراءة والتلاوة والترتيل والحفظ للنص عن ظهر قلب هي الخصائص التي ميزت القرآن الكريم على كل الكتب المنزلة ، والتي كانت صفتها الأساسية كتابتها بأيدي الخاصة من الاحبار وفي سرية ، بل وفي أكثر الظروف تحت مؤثرات من القهر والخوف ، واستمرار كتابتها والاضافة اليها والتعديل فيها بعد عصر الوحي قروناً طويلة مما أوقع الخلاف بين اتباعها حول مضمونها ونصوصها .

هذا .. ومما يجدر ذكره أنه على ضوء الكشف والدراسات المستفيضة التي حظيت بها الكتب السابقة على القرآن الكريم بعد عصر النهضة في أوروبا اكتشف وقوع كثير من المخالفات الموضوعية والتدوينية بل والتاريخية في كتب واسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وذلك بأثر مما تعرضت له هذه الاسفار من عدم الحفظ في القلوب والصدور فضلاً عن افتقادها لامانة التدوين ، ولقد شاعت عناية الله الا يتعرض القرآن لما تعرضت له الاسفار السابقة على الذكر الحكيم ، لقد كانت القراءة الدائمة للقرآن الكريم منذ نزوله وحفظه في صدر النبي وصدور المؤمنين في أمة مبينة ، تحفظ مآثور كلامها في الطريق المعبد الذي حفظ الله به القرآن المسموع الصوت فوق كل صوت من أي تحريف أو تحوير تحاول صنعه الاقلام في صريرها الخفي ، على

أوراق تحت أعين الكهنة وميولهم ، فلا تكاد تقع عليها عين ، كما حدث ذلك في تدوين وأسفار موسى عليه السلام بعد موته وكما حدث في تعدد الاناجيل بعد المسيح عليه السلام .

لقد نزل القرآن الكريم ميسراً مبيناً مباشراً في معانيه ، لا يحتاج لواسطة كاهن في تنظيمه للعقل ولا في مناجاته للقلب ، وهو قوي الصلة بدلالة اللسان العربي الذي - نزل به وبالنظم الالهي الذي تتابع به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الكتاب الوحيد الذي تعتد به العقول وتلهج به الالسة ، وتنشط على ندائه الفضائل الفطرية وتنمو في ضوئه الروادع الاخلاقية ، فما من كتاب سابق او لاحق على هذه الارض له ما لهذا القرآن العربي من يسر الحفظ وبعد المنال وخلود الاثر بكونه كلام الله الذي نسمعه قرآناً ونرتله تعبداً ونحفظه ثروة وذخراً ، فندين لله في ذكره وهديه ونوره بهذا الدين القيم ، مسلمين اليه غير مشركين به ، وسبحان القائل في كتابه في تأثير هذا الكتاب على قلوب المؤمنين : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (١) .

هـ) حملات عدوانية ضد القرآن الكريم :

هذا القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم باثباته وتبليغه ، نقلته الاجيال المسلمة وهو على ما هو عليه ، لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه شيء ، وهو على ما كان عليه يوم أثبت في اللوحن بالشكل الذي انتهى الينا اليوم ، ومع عجب نظمه وبديع رصفه ، وعدم قدرة أحد من الخلق على تأليف مثله او سورة او آية تقترب من مستوى طهره فان عناصر

(١) سورة الحشر - الآية رقم ٢١

مدخول فيه وانه غير ثابت ولا مضبوط ، وان فيه لحناً وتناقضاً ، وفي خضم موجات الاحاد والنفاق التي تعرض لها القرآن الكريم ، زعم قوم من الرافضة ان القرآن بدل وغير ، ثم قالت مجموعة منهم : نقص منه ولم يزد فيه ، وبلغ التداول الفاسد والحاقد على القرآن الكريم واعجازه أن قوماً قالوا : أن القرآن موجود وصحيح ، ولكن تأليفه وترتيبه فاسد ، ولو وضع كل شيء منه موضعه لزال الخلاف فيه وتبينت معانيه (١) . وهناك أيضاً من قالوا : أن عثمان رضي الله عنه جمع الناس على بعض الاحرف ومنع باقيها ، لما حدث من الخلاف ، ثم قالوا في موقف آخر : انه لم يحظر ما خالف مصحفه ، ولكنه استنزل الناس عنه عن طيب خاطر القلوب ، ثم جاء قوم من الفقهاء والمتكلمين وقالوا : يسوغ اعمال الرأي في آيات القرآن وأوجهه اذا كانت صواباً في اللغة ، وان لم تقم حجة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بتلك المواضع ، وهذا الكلام أيضاً مما ينكره الاسلام تماماً ويرفضه في تناول موضوع الذكر الحكيم .

والدارس للقرآن وعلومه يعلم أن الصدر الأول من المسلمين على سعة أمة الاسلام في بواديهما وحواضرها كانوا يعظمون شأن القرآن ويتقربون الى الله بتعليمه ، ولم يكن عندهم شيء أحق بالحفظ من القرآن الكريم ، ولقد مكثوا نيفاً وعشرين سنة والقرآن بين أيديهم يسجل ويحفظ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى السنتهم يعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه عن ربه ، كيف يرتلونه ثم يحثهم على حفظه واستظهاره .

ولقد بلغ من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يشيع في المسلمين روح التسابق في حفظ القرآن وتلاوته أن دفع فيهم هذا الدفع العظيم الذي

(١) أنظر : (نكت الانتصار لنقل القرآن للإمام ابي بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ دراسة وتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام طبعة منشأة المعارف بالاسكندرية صفحة ٥٩

يرويه الامام علي بن ابي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قرأ القرآن طاهراً أدخله الله الجنة مع عشرة من أهل بيته كلهم قد استوجبوا النار .

وفي المعنى المقابل فما جزاء مقصّر في حق كتاب الله الكريم : يروي أنس ابن مالك صلى الله عليه وسلم أنه قال : عرضت عليّ أجور أمتي حتى الغداة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت عليّ ذنوبهم ، فلم أر فيها من رجل يعلم آية أو سورة من كتاب الله عز وجل ثم نسيها) .

وفي وسط هذه الضوابط الدينية التي تقوم على مقومات عقيدة الايمان عند المسلمين ، كيف يتصور من أمة من أهم مقومات وجودها أن تعي ما حولها وأن تحفظ في قلبها ما يعرض عليها ، وإذا لم يكن القرآن الكريم هو الثابت والمضبوط في قلوب وعقول المسلمين وبين أيديهم ، فأى شيء آخر في الوجود يمكن أن يكون هو الثابت والمضبوط ؟

ان كل القرائن والشواهد والادلة لتؤكد باليقين أنه على وجه الارض كتاب يحمل خصائص ومقومات القرآن الكريم لقي من العناية والرعاية والاهتمام الدائم من المسلمين ما لقيه القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد ظلت جهود القوى المعادية في القديم والحديث للقرآن وأهله تبذل جهداً مستميتاً على أمل أن تنال من القرآن الكريم أو أن تشكك فيه الا أن كل هذه الجهود باءت بالخسران والفشل وذلك بفضل طبيعة المناعة والعصمة الالهية في الكتاب العظيم .

هذا .. ومن يقرأ كتاب (القراءات الشاذة) لابن خالويه ، طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة عام ١٩٣٤ وكذلك كتاب (ابي عبيد القاسم بن سلام) المسمى (فضائل القرآن) يجد روايات غير علمية وغير قابلة القول وغير محددة الهدف ، وأبسط ما يمكن أن يقال فيها في منطق الفكر الاسلامي أنها ضعيفة بل ومدسوسة وتقول بعض الروايات التي تتضمنها مثل هذه المصادر في بعض

ما تسجله عن افرازات قوى العدوان المتربصة بالقرآن الكريم بالنقد والتجريح عبر التاريخ ، ومع ذلك لم تنل منه شيئاً تقول بعض هذه الروايات فيما تنسبه الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، أنه كان يقرأ في فاتحة الكتاب : (غير المغضوب عليهم وغير الضالين) . وان - الزبير كان هو الآخر يقرأ : (صراط من أنعمت عليهم) . وان ابن عباس كان يقرأ ؟ (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوفا بهما ، وعلى الذين يطيقونه) . وأنه كان يقرأ : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج) وأنه كان يقرأ : (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فما استتمعت به منهن الى أجل فأتوهن أجورهن) . وروى أيضاً ابو عبيدة القاسم بن سلام في كتابه (فضائل القرآن) : أن أم المؤمنين (حفصة) رضي الله عنها : قرأت وكتبت في مصحفها - المصحف الذي كان عندها - : أو الصلاة الوسطى وصلاة العصر وان ابن مسعود قرأ : الذي يتخبطه المس يوم القيامة) وان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه افتتح سورة آل عمران : (الله لا اله الا هو الحي القيوم) وان سعد ابن ابى وقاص قرأ : وان كان رجل يورث كلاله وامراً وله أخ أو أخت من أمه وان ابن مسعود قرأ : (فصيام ثلاثة ايام متتابعات) . وهناك نماذج أخرى عديدة يسوقها الملاحدة والمنافقون وأعداء كتاب الله الكريم في التدليل عندهم على ان كتاب الله تعالى لم ينقل إلينا بالشكل والحجم الذي تركه الوحي على صدر وقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما طرأت عليه عندهم عمليات تدوينه بالنقص والزيادة .

ونبادر فنقول لو لم تكن هذه النماذج دليل حقد ضد روح الكمال الالهي في نص الذكر الحكيم لكانت دليلاً على عدم دراية بعلوم القرآن وكيفية تدوينه .

وبادى ذي بدء مثل هذه النماذج التي تساق في التدليل على أن القرآن

الكريم تعرض للحذف والاضافة ، ولو سلمنا - جدلاً - على أنه كان يحدو رواتها محاولة التعرف على كتاب الله تعالى ، وهذا الافتراض مستحيل تماماً على ضوء اسلوب معالجتهم لما كانوا بصدد هذه النماذج أخبار احاد وغير موثوق بصحتها ولا تقوم حجة او برهاناً على ما يذهبون اليه من أن القرآن قد تعرض للحذف والاضافة ، والقرآن الكريم منذ صدر على الوحي الالهي على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون يتداولونه وذلك قبل مراحل تدوينه وتسجيله في عهد الرسول وحياته - لا عن طريق الآحاد بل بالتواتر ، ولم يكن المسلمون يقرأون من كتاب الله ، حتى ورسول الله بين ظهرانيهم الا ما تواتر نقله وثبت تداوله على هذا الوجه الصحيح اذا لم يكونوا يأخذون مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وحين كانوا يرون آية ينفرد بها أحد المسلمين ، كأن يكون قد سمعها من رسول الله ، قبل أن يشيع أمرها بين المسلمين جميعاً ، أو كأن يكون قد سمعها ثم نسخت ولم ينته اليه امر النسخ ، وعند مثل هذه الحالة ، كان المسلمون يرجعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للتثبت من صحة الآيات التي تكون أمامهم ، لتبدأ هذه الآيات تنتشر بين قلوب المسلمين وعلى ألسنتهم عن طريق التواتر لا عن طريق الاحاد ، يضاف الى هذا التواتر عملية التدوين التي كانت تتم وتمت بالفعل تحت اشراف النبي صلى الله عليه وسلم ومراجعته لكتاب الوحي وللإطلاع على ما كتبه من آيات الذكر الحكيم ولن يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد - مراجعة لكل آيات الذكر الحكيم بالشكل الذي انتهى به الينا واستمرت هذه المراجعة لمدة عامين كاملين .

وأما ما تعلق به بعض الذين تعرضوا للقرآن الكريم من القدماء أو المحدثين بالدراسة ، ناقلين او حاقلين أو قراء له بغير دراية ، من أن هناك بعض الآيات أضيفت الى كتاب الله مثل تعلقهم بما يقال : (انما أنزلنا المال لاقامة الصلاة وايتاء الزكاة) فانه فضلاً عن عدم اتساق مثل هذه النماذج ، ومع

روح البناء اللفظي والمعنوي لآيات الذكر الحكيم ، فإنها دائماً أخبار آحاد ، ولا سبيل لأحد أن يؤكد ثبوتها ولو ثبتت لكانت مما نسخ وأزيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يراجع الوحي الالهي جبريل الأمين خلال عامين .

هذا .. والقرآن جميعه قد تم تداوله بطريف التواتر مع تداول نص النسخ التي انتهت الى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وعلى هذا المعيار فان ما ينسب البعض عن وجود مصحف أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها كان فيه : (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون الصفوف الاول) .

وما ينسب أيضاً الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، من أنه كان يقول كنا نقرأ : (ترغبوا عن آباءكم فانه كفر بكم) . وانه قال : لعبد الرحمن ابن عوف : ألم تجد فيما أنزل إلينا : (ان جاهدوا كما جاهدتم أول مرة) فان هذه النماذج لو كانت قرآناً لثبتت مع آيات الوحي ، وعلى افتراض أنها من آيات الوحي — حتى لا يتهم المسلم بالتعصب العلمي في رفضه للفروض العقلية — فإنها بالمعيار الاسلامي تصبح من الآيات التي نسخت وأزيلت وحظر على المسلمين بتوجيه نبيهم صلى الله عليه وسلم أن يشتوها في نص الذكر الحكيم أو يدونوها ، فضلاً عن ان تتواتر على ألسنة المسلمين ، واذا ما افترضنا سلامة مقصد من ادعى بعد ذلك نسبة هذه النماذج الى القرآن الكريم فلعلهم من أولئك الذين سمعوا هذه النماذج من الآيات المدعاة وحين نسخت هذه الآيات لم ينته اليهم أمر النسخ فبقيت عندهم هذه الشبه هذا اذا افترضنا حسن نية وسلامة قلب من ساق هذه الامثلة والنماذج حول موضوع تدوين الذكر الحكيم .

الفصل السابع

خصائص النص القرآني :

لا يوجد كتاب على وجه الارض أودع الله فيه من الخصائص والمقومات والقواعد ما انفرد به (الذكر الحكيم) . وليست خصائص النص القرآني تركيبية فنية من جملة اعتبارات ومقومات لتضفي عليه كهنوتية أو رمزية ، أو ليكون أداة لطلاسم وشعائر مثلما هو في بعض الكتب المقدسة التي ادعاها اصحابها والتي لعب بها التحريف وعمل فيها الهوى وسيطرت عليها الاهواء ، ولكن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي وضع له رب العالمين مقومات حفظه وخصائص ونهج قراءاته واسلوب تناوله .

وفي محكم التنزيل الحكيم ما يفيد أن الله سبحانه يجهز عباده الذين يقبلون على قراءة القرآن الكريم وتدبر معانيه بمقومات خاصة وتجريدات محددة حتى يصبحوا محلاً وأهلاً للدخول في حضرة (كتاب الله) يقول رب العزة في محكم التنزيل : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، يجعل المسلم بالله في قدرة خاصة تمكنه من أن ينفي عن ذهنه صور الشيطان وما يخيله من وساوس وما يستثمره في الانسان من نزعات ، وما يحركه في النفس من هوى ، وما يؤججه في الحس من طغيان المادة وعدوان سلطانها على القلب والروح ، ولأنك ايها المسلم مقبل على الله من خلال كتابه فاستعذ به من أعدائه وأعدائك : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، فهذا اذا مدخل من مداخل اعداد المسلم وتربيته عند دخوله الى حضرة النص الكريم

في كتاب الله تعالى ، فاذا ما ابتدأ المسلم يقرأ في آيات الله فليست القراءة على نمط سجع السجاع ، ولا ترانيم الكهان ، ولا تتممة الأخبار ، وانما بذلك الأداء الذي يمكن القلب والعقل معاً في استحضار دلالات ومعاني النص الكريم ، وهو ذلك الاسلوب الذي سماه الله تعالى في كتابه وهو يوجه نبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم (ترتيلاً) حين قال له : (يا أيها المزمّل قم الليل الا قليلاً نصفه أو أنقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) . والترتيل في القرآن هو : التآني والتمهل وتبين الحروف والحركات تسبيهاً بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الأقحوان (١) .

واذا ما قرأ المسلم القرآن بعد أن يكون قد أقبل عليه بهذه الدفقة الروحية العظيمة ، فانه باليقن الذي يلقيه في نفسه الذكر الحكيم ويصبح في حال يتميز بها ويتغاير عن كل غير المؤمنين بالقرآن بل ويتغاير بها عن المؤمنين وهم في غير حال القراءة ، يقول رب العزة : (فاذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) .

وفي تطبيق والتزام النهج القرآني في القراءة كان الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الاعلى والاكمل في الاداء القرآني في النهج الذي يكشف لنا عن خصائص ومقومات النص القرآني وانفراده من بين جميع الكتب السماوية بهذه الميزة التي تعتبر من آيات برهانه للناس .

تقول أم المؤمنين (حفصة) رضي الله عنها : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول منها) .

وفي تقرير هذا المعنى وتأكيده يصف انس بن مالك رضي الله عنه قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : (كان يمد مداً) .

(١) انظر : مناهج التفسير : للدكتور مصطفى الصاوي الجويني : أستاذ الدراسات الإسلامية والبلاغية في كلية البنات جامعة عين شمس ص ١١ صادر عن منشأة المعارف بالاسكندرية .

وعلى هذا النهج القرآني في القراءة والذي يتمثل في التمهّل والتأني وإخراج الحروف ومدّها ، يتيح للقارئ المسلم أن يتعرف على روح الحياة في النصّ القرآني ، ويعاونه على تدبر معانيه ، ذلك أن هذا المكثّ والتريث والتمهّل في نطق الآية القرآنية يعطي الروح الإلهي في الإنسان القدرة التي تمارس عملها في استنباط وتنبيه الفؤاد وتحريك النفس وتجهيز الوجود الإنساني المودع في قيمة وروح الإنسان على الرؤية والتدبر والتبصر .

ويضع رب العزة أمام المؤمنين الأهداف المرجوة من كل ضوابط والتزامات النهج القرآني فيقول : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب) .

ويدعو الرحمن الرحيم الى قراءة القرآن ، ولكنه في الوقت نفسه ينعي على قوم يقرّأونه ولا يتدبرون آياته فيقول عز من قائل : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) . يا سبحان الله : ان الله سبحانه يشبه تعطيل القلب الإلهي المودع في الإنسان ، هذا القلب الذي هو بمثابة البصيرة الإيمانية التي يستطيع بها المرء أن يعرف الفرق بين الأشياء وجوهر الأشياء أو قل بين الحلال والحرام أو بين الخير والشر ببيت أغلقت أبوابه وسدت منافذه ، ذلك أن الغاية المبتغاة من قراءة كتاب الله سبحانه ، هي تدبر معانيه والتعرف على دلالاته ، وبالتالي العمل بأحكامه ، ومن هنا تجيء الآية الكريمة التي معنا بهذا الحفز العظيم وبهذه الدفعة الوجدانية الفذة لكي تحقّق الهدف المرجو ويقف المسلم على بعض براهين ربه من خلال آيات الذكر الحكيم : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

ومن هنا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبذل الجهد كله ويقدم ما منحه الله جميعه في تحقيق هدف التدبر لآيات الذكر الحكيم .

يحكي حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه فيقول : (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأها يقرأ مسترسلاً ، اذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، واذا مر بسؤال سأل واذا مر بتعوذ تعوذ) .

ونفس هذا المعنى أو قريباً منه يحدثنا عوف بن مالك فيقول : (قمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة الا وقف وسأل ولا يمر بآية الا وقف وتعوذ) .

ونستطيع ان نرى بعداً روحياً ونفسياً كبيراً وعميقاً يتوجه الى قلب المسلم من خلال قول الله تعالى : (... أفلا يتدبرون القرآن ...) الآية في ذلك الموقف الفذ المستعطر لرحمات العزيز العليم حين وقف المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فيما روي عن ابي ذر رضي الله عنه ليلة قائماً يردد قوله تعالى : (ان تعذبهم فانهم عبادك) ويستشعر المسلم بوجدانه حين يتصور هذا المشهد المهيّب أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأ الآية استغرق في تفليب وجوها وتدبر معانيها فبكى . هذا ومن المقرر يقيناً أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في تلاوته للقرآن الكريم يتجاوب مع النص الذي يتلوه ، فهو اذا قرأ : والتين والزيتون ، وبلغ قوله تعالى : (أليس الله بأحكم الحاكمين) كان يقول : بلى أي نعم ، واذا قرأ : (فبأي حديث بعده يؤمنون) قال : آمنت بالله وما أنزل . وقرأ في الصلاة قوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) قال : اللهم آت نفسي تقواها وزكها وأنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها .

والدارس لعلوم القرآن الكريم يستطيع أن يتعرف على البواعث الروحية في قلب المؤمن لاستحباب الترتيل في قراءة الذكر الحكيم ، ذلك أن الترتيل بأحكامه والتي لا تخرج عن كونها تعقيداً للاداء الذي كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقة ترتيله من حيث المد والادغام والاقلاب

والاشمام وغير ذلك من قواعد الترتيل انما هي مدخل الى ساحة التدبر ليكون المعنى في النفس أقرب الى الاجلال والتوفير في امكان نقاء القلب وهيمنة النص على النفس (١) .

فلقد كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخلون الى كتاب ربهم يقرأونه ويتدبرونه وذلك بالخشوع والخضوع والتهيب والاجلال لقداسة النص القرآني الذي كانوا بصددده .

روي عن عبد الله بن عباس قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ ، قال فقرأت عليه سورة النساء حتى اذا بلغت ، (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فنظرت اليه - صلى الله عليه وسلم فاذا عيناه تدمعان (١) . ولعمق الشعور القوي بجلال القرآن الكريم كان امير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقرأ القرآن مرات كثيرة وهو يصلي بالناس ، ويحدث له أحياناً اذا ما انفتح قلبه على عميق الصلوة التي تكون بين معطيات النص وبين روح وقلب المؤمن أن تسمعه يبكي ويبكي في الصلوة حتى تنقطع قراءته ، ويسمع نحيبه من وراء ثلاث صفوف .

هذا .. ويعقد المولى سبحانه علاقة قوية بين روح النص القرآني واسلوب تلاوته والايمان به فيقول جل شأنه : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) .

ولقد دعا الحرص على تدبر معاني القرآن والعمل به ، أن الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يرويه ابن مسعود اذا تعلم عشر آيات من كتاب الله لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن ، وهذا

(١) (سراج القاريء المبتدئ وتذكار القاريء المنتهي) لأبي القاسم علي بن عثمان بن محمد ابن أحمد بن الحسن الفاصح العذري - الطبعة الاولى عام ١٩٣٤ صفحة ٤٠٠

هو السر في أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه فيما نقل عنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقرئون من النبي القرآن فكانوا اذا تعلم واحد منهم عشر آيات ، لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فكانوا يتعلمون القرآن والعمل معاً ، وكان دافعهم الى هذا النوع من الارتباط والالتزام هو خطاب الله تعالى للانسانية كلها في كتابه الكريم من خلال أولئك الابرار الاطهار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه .

يقول رب العزة : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصلاحية الكبرى التي تحولها له الآية الكريمة وغيرها كثير بين آيات الذكر الحكيم هو المعلم الأول والاكبر للذكر الحكيم واذا كان عليه السلام يتقبل من أصحابه ما عسر عليهم فهمه من كتاب الله ، وها هو ابو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : يا رسول الله : كيف الصلاح بعد هذه الآية . (ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزيه) . فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (غفر الله لك يا ابا بكر ، أأنت تمرض ؟ أأنت تنصب ؟ أأنت تحزن ؟ أأنت تصيبك اللألة ؟ قال بلى ، قال فهو ما تجزون به) .

هذا .. ونحب أن نقرر أن النص القرآني ليس لغزاً نملك مفتاحه ، وإنما قصدنا من معالجة هذا الجانب وابرازه تقديم البرهان القرآني على أن النص القرآني ليس سوقاً عامة يباع فيها كل شيء ، ويذهب اليها كل من (هب ودب) لشراء ما يرغب أو عرض أية بضاعة يريد ، ولكن القرآن الكريم (كلام الله) صاغه سبحانه بلغة جنس من البشر هم العرب ، واللغة العربية

في علم الله ومشئته هي اللغة التي صاغ بها سبحانه من علمه وارادته (قرآنًا للبشر) ، وعليها فتصبح العلاقة بين كلام الله تعالى في القرآن بالمفردة العربية وبين لغة العرب من حيث الدلالة اللغوية فقط أقرب ما تكون الى العلاقة التي بين قطرات ماء من مطر سحابة أرسلتها مياه المحيط وبين مياه المحيط نفسها: الاولى قطرات خفيفة محدودة مقيدة أما الثانية فبحر عباب وعمق وبعد ولا تنتهى لها وبينهما علاقة ولكن شتان ، ومن هنا يصعب على الدارس للقرآن الكريم وعلومه ان يدخل امام النص القرآني ليأخذ من روحه بعض ما فيه دون أن يتعرف على دلالة اللغة العربية والتي على ضوئها فهم العربي القديم ، كلام رب العالمين ثم بالفهم الذي أصبح عنده علماً أدرك (برهان الله للناس) في كتابه العظيم .

وأمام هذا الذي نراه من ضرورة الاعداد والاستعداد للدخول في ساحة النص الكريم للافادة بما فيه ، فاننا بادىء ذي بدء نحب ان نشير الى جمهور علماء المسلمين الذين كرسوا معظم حياتهم لخدمة كتاب ربهم ومحاولة الوقوف على بعض أسرار الكريمة من حيث دلالة النص الحكيم ليتبين لنا كيف يتميز كتاب الله بمقومات وضوابط استقرت عند العلماء الذين تناولوه بالدراسة والشرح والتفسير عبر تاريخه الطويل حتى أصبح مغايراً تماماً من حيث العناية به والاهتمام بنصه لكل ما تعرضت له اسفار وكتب اصحاب الاديان السابقة ، ومن هؤلاء العلماء المبرزين الفقيه المفسر الجامع (الحسين بن محمد الدامغاني) الذي ألف كتابه (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) وقد كاد الكتاب في غيبة النهضة الاسلامية ان تتشوه معالمه وأن تضيع أجزاؤه حتى قيض له العالم المحقق (عبد العزيز سيد الاهل) الذي حققه ورتبه وأكمله وأصلحه ، ونشره في (دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٧٠) تحت عنوان (اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) والكتاب يعطي الباحث نماذج وأنماط يمكن بها

أن يتعرف على مستوى ودلالات ودرجات اللفظة الواحدة في تناول النص القرآني ، ومن خلالها يتبين أن ليس كتاب الله - القرآن - بالكتاب الذي يمكن أن يفتحه للدرس والبحث كل انسان ، وليقول ما فهمه عن ارادة الله في كتابه .. ولا بد والامر عظيم كهذا من التزود العلمي والروحي بكل ما يعاون على القيام بمثل هذا العمل الجليل ، وعلى سبيل المثال فان بعض الالفاظ التي تندرج في القرآن الكريم كمفردة لفظية في سياق الذكر الحكيم ترد على وجوه كثيرة كهذا الذي نعرض له على ضوء ما دونه (الحسين بن محمد الدامغاني).

أتى : هذه المفردة ترد في الذكر الحكيم على الالوجه التالية . في سورة النحل يقول سبحانه : (أتى أمر الله فلا تستعجلون) أي قرب ودنا بقرينه (فلا تستعجلوه) وتأتي بمعنى (الاصابة) كما يقول تعالى في سورة الانعام (ان أتاكم عذاب الله) وتأتي بمعنى (القلع) كما يقول تعالى في سورة النحل (فأتى الله بنيانهم من القواعد) أي قلع بنيان ديارهم ، وتأتي بمعنى وقوع (العذاب) كما في قوله تعالى في سورة الحشر (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) أي عذبهم الله تعالى ومثل قوله تعالى في سورة الانعام (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ..) فهي هنا بمعنى يهلك ربك .

وتأتي أيضاً (أتى) بمعنى (السوق) كما في سورة النحل (يأتيها رزقها رغداً) أي يسوق اليها رزقها من كل مكان .

ونفس المفردة (أتى) يجيء منها (الاتيان) بمعنى الجماع كما في قوله تعالى في سورة الشعراء (أتأتون الذكران من العالمين) وكما في سورة العنكبوت (أتتكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) . ونفس المعنى والاستعمال في سورة الاعراف (فاتوا حرثكم أنى شئتم) .

وتتسع اللفظة (أتى) للعمل كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت
(انكم لتأتون الفاحشة) وكقوله تعالى في نفس السورة (وتأتون في
ناديكم المنكر) بمعنى تعملون .

ثم تأتي (أتى) بمعنى (الاقرار والطاعة) كما في قوله تعالى في سورة -
مریم (ان كل من في السموات والارض الا أتى الرحمن عبداً) أي
مقراً له بالعبودية .

وتأتي ايضاً (أتى) بمعنى (الخلق) كما في قوله تعالى في سورة الملائكة
(ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديدة يعني والله أعلم ، ان يشأ يهلككم
ويمتكم ويخلق خلقاً جديداً .

هذا .. وتأتي من لفظة (أتى) الاتيان بمعنى (المضي) مثل قوله تعالى
في سورة الفرقان (ولقد أتوا على القرية التي امطرت) يعني ولقد مضوا على
كما في قوله تعالى في سورة الاعراب (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم
وكما في سورة النحل (حتى اذا أتوا على وادي النمل) أي مضوا .

ويأتي من (أتى) الاتيان بمعنى (الاسرال) كقوله تعالى في سورة
المؤمنون (بل أتيناهم بالحق) يعني ارسلنا جبريل بالحق ، وكقوله تعالى
(بل أتيناهم بذكرهم) اي ارسلنا جبريل يشرفهم .. ويأتي من (أتى)
الاتيان الذي هو بمعنى (المفاجأة) كما في قوله تعالى في سورة الاعراف
(أفأمن أهل القرى أن - يأتيهم) أي بمفاجئتهم بأسنا .

هذا نموذج في مفردة من آي الذكر الحكيم يتغير من خلالها البنيان
الذي حولها الى معاني خمسة عشر مرة .

ونستطيع أن نأتي على مفردة ثانية في لفظة ثلاثية تتكون من ثلاثة أحرف
فقط مثل (أحد) .. ان وجهاً منها يجيء وتتحّد معانيته ودلالته من

السياق العام للآية وقدرة المفرد وطبيعة دلالاته حتى لا يتحمل القرآن الكريم أهواء وشطحات أصحاب الهوى يجيء الوجه الاول منها ويراد به رب العالمين لا سواه كما في قوله تعالى في سورة البلد (أيجب ان لم يره أحد) يعني الله تعالى .

ويميل الراغب الاصفهاني في كتابه المفردات الى أن لفظة (أحده) تستعمل مطلقاً في وصفه تعالى . لكن طبيعة المفردة العربية فضلاً عن سياق آيات الذكر الحكيم تجعلها تحتل مضامين أخرى ، كما في قوله تعالى في سورة الحشر : (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم معكم ولا نطيع فيكم أحداً) .. فالمراد بهذا الاحد في هذه الآية النبي صلى الله عليه وسلم فان المنافقين كانوا يقولون : لا نطيع محمداً .

ونفس المعنى في ايراد « (أحد) في سياق الآية ، ويراد به النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قوله تعالى في سورة آل عمران : (اذا تصعدون ولا تلوون على أحد) يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

هنا .. وتجيء (أحد) في الذكر الحكيم ويراد شخصاً بعينه كما هو في قوله تعالى في سورة الليل : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) . فحين ابتاع ابو بكر بلالا رضي الله عنهما برطل من الذهب قال المشركون ، فافعل ابو بكر ما فعله الا ليد أو نعمة كانت لبلال على أبي بكر حين أعتقه فجاءت الآية ، كما ذكر الواقدي في اسباب النزول بسورة الليل وتحدد المراد (بأحد) وأنه بلال ، وأنه ليس له يد على أبي بكر .

وفي قضية (النبي) المعروفة ، فان الذكر الحكيم حدد اسلوبه منها وكان السبب فيها (زيد بن حارثة) ، وحين نزل الذكر الحكيم في هذه

الواقعة في قوله تعالى : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) كان من الواضح لمن عرف أسباب النزول أن المراد بـ (أحد) زيد بن حارثة .

هذا .. وتجيء أحد بمعنى (أي) من الخلق كله : الملائكة والانس والجن ، كما في قوله تعالى في سورة الكهف : (ولا يشرك بعباده ربه أحداً) . وكقوله تعالى في نفس السورة (ولا أشرك بربي أحداً) .

وتجيء (أحد) ويحدد بها شخص بغيره ، كما سبق في سورة يوسف ويراد بها ساقى الملك ويقول تعالى : (قال أحدهما اني اراني أعصر خمرا) .

ونأتي على أنموذج ثالث من استعمال المفردة العربية في الذكر الحكيم وكيف تتأتى على وجوه عديدة لا يسعف في فهم المراد منها والوقوف على دلالتها ، الا كل من ألم بقواعد العربية واسراد دلالتها ، وعلم القرآن وأسباب نزوله حتى يمكن بعد ذلك تصور الروح العام لنص الذكر الحكيم .

نورد المثال الثالث على استعمال (المفردة) الواحدة في القرآن الكريم ونترك بعد ذلك لفطنة القارىء ، اكتم يحتاج العقل البشري الى طاقات وجهود علمية ضخمة لتجهيز نفسه وتصبح عنده القابلية لان يستوعب المعنى العام لدلالات اللغة العربية ، لا كما أرادها الله تعالى في كتابه من خلال النص القرآني كاملة وانما كما هي عليه في لغة العرب ليتمكن بعد ذلك الاقتراب من فهم النص القرآني والذي بدون التعرف على قواعد وأصول ومقومات اللغة العربية يصبح العقل البشري أمام مغاليق رهيبة تحول بينه وبين الاقتراب من عظمة النص القرآني في لغة العرب .

المثال الثالث الذي نورده : (اتخذ) القرية من أخذ ، تجيء اتخذ على الوجوه التالية في آيات الذكر الحكيم .

وجه منها بمعنى (اختار) (١) وذلك في قوله تعالى في سورة النساء (واتخذ الله ابراهيم خليلاً) . ومثله بالنفي كما في قوله تعالى في سورة المؤمنون (وما اتخذ الله من ولد) .

وجه منها بمعنى (أكرم) كما في سورة آل عمران (ويتخذ منكم شهداء) ويكرم منكم شهداء بالشهادة ، وتجيء أيضاً بمعنى (صاغ) كما في قوله تعالى في سورة الاعراف عن قوم موسى حين عملوا لهم عجلاً من ذهب لعبدوه : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً) أي صاغوا عجلاً .

وتأتي (اتخذ) بمعنى (سلك) كما يقول تعالى في سورة الكهف : (فاتخذ سبيله في البحر سرياً) أي سلك طريقه . وقريب من نفس هذا المعنى قوله تعالى : (واتخذ سبيله في البحر عجلاً) .

هذا .. وتجيء (اتخذ) بمعنى (سمى) كما في قوله تعالى في سورة براءة : (واتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً) بمعنى سموهم أرباباً من دون الله .. وتجيء (اتخذ) بمعنى (نسجت) كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) أي نسجت بيتاً .

هذا .. ومن بين الوجوه التي تتقلب على المفردة العربية الواحدة وتسعها ولا تضيق بها ، لأن روح النسق العام للموقف الذي تعالجه المفردة كواحدة من بنية الآية الكريمة يساعد ويدفع الى تخليق المعنى وتصوره باعتباره حقيقة كامنة في وحدات المفردة العربية . تجيء مفردة (اتخذ) ليكون منها (اتخذوا) بمعنى عبدوا ، ولا يعاون على تصور البعد

(١) (اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) . للفقير (الحسين بن محمد الدامغاني) تحقيق وترتيب وتكميل : عبد العزيز سيد الاهل - الطبعة الاولى عام ١٩٧٠ - دار العلم للملايين بيروت
صفحتي ٢١ - ٢٢

الشايع بين اللاليتين او الثلاث او العشر عندما تعاون بين دلالة (اتخذت) ، بمعنى (نسجت) وبين دلالة (اتخذوا) بمعنى (عبدوا) ، الا عندما تسمع قول رب العزة في سورة العنكبوت (الذين اتخذوا من دون بمعنى (عبدوا) ، الا عندما تسمع قول رب العزة في سورة العنكبوت (الذين اتخذوا من دون الله اولياء) أو تسمع قوله تعالى في سورة الاعراف (ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم) فتدرك الفرق في استعمال اللفظة الواحدة ومشتقاتها في هذا الموقع حين تختلف دلالتها عن الموقع الذي سبقها أو الذي قد يلحقها .

هذا .. وتجيء أيضاً (اتخذ) بمعنى (جعل) مثلما هي في قوله تعالى (تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم) أي تجعلونه مثلما هو في قوله في سورة المجادلة (اتخذوا أيمانهم جنة) أي جعلوها ضراء .

وتأتي (اتخذ) بمعنى (بنى) كما في قوله تعالى في سورة براءة : (والذين اتخذوا مسجداً ضاراراً) أي بنوا ونفس المعنى في سورة الكهف (لنتخذن عليهم مسجداً) وفي سورة الاعراف (وتتخذون من سهولها قصوراً) أي تبنون .. وتجيء أيضاً (اتخذ) بمعنى (رضي) كما في قوله تعالى في سورة المزمل (لا اله الا هو فاتخذه وكيلاً) أي ارضى به ربا رازقاً .

وانظر الى ذلك البعد الذي تحتمله دلالات وقد رأت اللغة العربية التي يستخدمها البناء القرآني في برهان عظيم : ان لفظة (اتخذ) التي ترد من بنين لبنات آية على أنها بمعنى بني تجيء في اية ثانية بوظيفة أخرى ومعنى مغاير تماماً .. ان اتخذ تجيء في سورة مريم بمعنى يغاير في وظيفتها المعاني السابقة يقول تعالى (فاتخذت من دونهم حجاباً) بمعنى أرخت ستراً أحال بينها وبين ما تريد أن تحجب عنه « ومن عجب أننا نرى نفس اللفظة في نفس السورة في وظيفة أخرى كبرهان معجز لاعجاز النص

القرآني حين وظف اللغة العربية بهذا المستوى المبهـر في الأداء (ان لفظة اتخذ التي لا تزال بين أيدينا بمعنى (أرعى السـر) تجيء الآن بمعنى (اعتقد) يقول رب العالمين في سورة مريم ، (لا يملكـون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يعنى اعتقد عند الرحمن عهدا ، بأن لا اله الا الله ، وهكذا تمضي وحدة بناء اللفظة العربية وتقرر قدراتها كل ذلك العطاء ، وهي مع قدرتها هذه داخل النص القرآني شيء آخر من خلال معنى يسري في داخلها أشبه ما يكون (بالروح) وهذا الروح هو السر الاعظم وراء تلك الميزة الفريدة التي تشيع في القرآن الكريم وتنعدم في أي كتاب آخر سواه .

ان صاحب (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) يورد أربعة عشر وجهاً تناولت اللفظة العربية (قرب) في استعمال القرآن الكريم لها : وهذه الخصوبة والثراء في معطيات واشعاعات (مفردة) لغوية لا تجدها في أي نهج أدبي في أرقى اللغات وأكثرها تطوراً ، وذلك بسبب المستوى الرفيع الذي بلغته اللغة العربية على لسان وعقل وضمير الانسان العربي قبل الاسلام) .

الوجه الاول في استعمالات (قرب) في بيان الذكر الحكيم : (القرب الجماع مثلما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة : (ولا تقربوهن حتى يظرن) أي تجامعوهن .

الوجه الثاني : (القرب) .. الاجابة .. كما في قوله تعالى في سورة البقرة : (واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعا) أي اذا سألك عبادي فاني مجيب لهم .

الوجه الثالث : (القرب) بمعنى مدانة المدة كما في قوله تعالى في سورة هود : (فياخذكم عذاب قريب) ومثل قوله تعالى في سورة

الانبياء : (اقرب للناس حسابهم) ومثل قوله تعالى أيضاً (واقرب الوعد الحق) أي دنا .

الوجه الرابع : من قرب الاقرب الذي هو بمعنى (الاصوب) كما في قوله تعالى في سورة الكهف : (لأقرب من هذا رشداً) أي لأصوب من هذا .

الوجه الخامس من (قرب) الاقرب بمعنى (اللين) كما في قوله تعالى في سورة المائدة : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) يعني أليّنهم مودة وقولا .

الوجه السادس من الوجوه التي تتخلق من بنية اللفظ الثلاثي (قرب) : القربى والقربة بمعنى (القرابة) كما في قوله تعالى في سورة حم عسف : (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى) . وفي سورة النساء (وبذي القربى) وفي سورة البلد (يتيما ذا مقربة) أي ذا قرابة .

الوجه السابع من الوجوه التي تعرض وتنبعث من قدرات اللفظة (قرب) المكان القريب وهو : صخرة بيت المقدس ، كما يذهب بعض المفسرين في قوله تعالى في سورة (ق) . بالبحث واختلاف وجهات النظر واعني به موضوع (النسخ) . ولذا يجدر بنا أن نفرده له مبحثاً مستقلاً باعتباره (النسخ) أحد المراحل أو أقل العمليات التي مرت بالذكر الحكيم أثناء نزول فترة الوحي الالهي على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وقبل التدوين .

هذا .. وللمشتغلين بالقرآن الكريم وعلومه عناية خاصة بالذكر الحكيم ، انتهت بهم على ضوء البرهان القرآني الذي جاء به القرآن ، آية واعجازاً في لغة العرب الى تقرير قواعد وأصول ، قد لا يستقيم

فيهم الكثير من المعاني للفظ القرآنية دون الرجوع والاستعانة بهذه القواعد وتلك الاصول .

ومن ذلك مثلا تلك القواعد اللغوية التي يستعان بها في فهم الوجوه التي ترد على معنى الآية الواحدة . ويخصص : (مكّي بن ابي طالب القيسي) ٣٥٥ - ٤٣٧ - هجرية كتابه (مشكل اعراب القرآن) (١) . لا يراد وعلاج بعض الوجوه التي ترد على اللفظة القرآنية على ضوء ما استقرت عليه قواعد لغة العرب بعد نزول القرآن الكريم .

فمثلا عند قوله تعالى في سورة آل عمران : (ولا تؤمنوا الا لمن تبع لينكم ، قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يجاجوكم عند ربكم قل ان الفصل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم) . يقول : (أن) مفعول بـ (تؤمنوا) وتقدير الكلام : (ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم الا من تبع دينكم ، فاللام على هذه زائدة ومن في موضع نصب استثناءا ليس من الاول .

وقيل التقدير : ولا تصدقوا الا من تبع دينكم بأن يؤتى أحد .

وقال الفراء : انقطع الكلام عند قوله (.. دينكم) ثم قال لمحمد عليه السلام قل : ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ف (لا) مقدره

ويجوز أن تكون اللام غير زائدة ، وتتعلق بما دل عليه الكلام ، لان معنى الكلام لا تقر بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، الا من تبع دينكم ، فيتعلق الحرفان : أي الباء واللام (تقرؤا) كما تقول أقررت لزيد

(١) (كتاب مشكل اعراب القرآن) تأليف (مكّي بن ابي طالب القيسي) ٣٥٥ ٤٣٧ هـ تحقيق (ياسين محمد السواس - الجزء الاول - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م) .

بألف ، وجاز ذلك لان الاول كالظرف فصار بمنزلة قوله : مررت
في السوق بزيد .

وانما دخلت (احد) لتقدم لفظ النفي في قوله : (ولا تؤمنوا) فهو
نهي ولفظه لفظ النفي ، فأما من مده واستفهام وهي قراءة ابن كثير
فانه أتى به على معنى الانكار من اليهود أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا حكاية
عنهم ، فيجوز أن تكون (أن) في موضع رفع بالابتداء اذ لا يعمل
في (أن) ما قبلها لاجل الاستفهام وخبر الابتداء محذوف تقديره أن
يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، تصدقون أو تقررون ونحوه ، وحسن الابتداء
بـ(أن) لانها اعتمدت على حرف الاستفهام فهو في التثميل بمنزلة :
أزيد ضربته ؟

ويجوز أن تكون (أن) في موضع نصب ، وهو الاختيار ، كما كان
في قوله أزيد ضربته النصب ، لان الاستفهام عن الفعل فتضمر فعلا
بين الالف وبين (أن) تقديره : أتريدون أن يؤتى أحد مثل ما
أوتيتم ، وأنشيعون واتذكرون ، ونحو هذا مما يدل عليه الانكار الذي
قصدوا اليه بلفظ الاستفهام ، ودل على قصدهم لهذا المعنى قوله تعالى
فيما قالوا لاصحابهم : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، يعنون : أتحدثون
المسلمين بما وجدتم في صفة نبيهم في كتابه ليحاجوكم به عند ربكم .
(و(أحد) في قراءة من مد بمعنى (واحد) ، وانما جمع في قوله أو
يحاجوكم لانه ردة على معنى أحد لانه بمعنى الكثرة لكن أحداً اذا
كان في النفي أقوى في الدلالة على الكثرة منه اذا كان في الايجاب ،
وحسن دخول (أحد) بعد لفظ الاستفهام لانه بمعنى الانكار والحجة ،
فدخلت (أحد) بعده كما تدخل بعد الجحد الملحوظ ، فينصح على هذا
أن تكون على أصلها في العموم ، وليست بمعنى واحد .

هذا نموذج من أوجه اعراب آية كما أورها صاحب (مشكل اعراب القرآن) وانه حين يورد نماذج من آيات الذكر الحكيم ، ويقلب وجوه اعرابها باعتباره أحد الذين أرادوا التعرف على كتاب الله من خلال دلالات معاني الآيات ، يتضح أمام أولئك الذين لا يتورعون من أن يقحموا أنفسهم على كتاب الله تعالى للفتيا فيه أو تفسير معانيه بغير عدة ولا دراية . فضلا عن سوء القصد في غيبه علم نظيف يقوم على ضوء قواعد الايمان بالله تعالى . انظر الى بعض الوجوه التي ترد على آية من الذكر الحكيم في سورة آل عمران يوردها (مكي بن ابي طالب القيسي) في (مشكل اعراب القرآن) ، لرى كم يتطلب القرآن الكريم من الذين يدخلون الى رحابه ويريدون ان ينهلوا من عذب روحه ليعيشوا في جلال عطائه وعظيم نعمه أن يكونوا مجهزين بادىء ذي بدء لفهم النص الحكيم ، وحتى يتاح لمن يتصدى لشرف التعرف على فهم معاني ودلالات آيات الله تعالى أن يكشف الله له بعض أسرار كتابه من خلال النص المعجز .

يقول رب العالمين في سورة المائدة : (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلك امري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) .

يقول صاحب (مشكل اعراب القرآن) : ان من كثر الكلام : (.. لما آتيتكم) وهو حمزه ، علقها بالأخذ ، أي أخذ الله الميثاق عليهم ، لما أعطوا من الكتاب والحكمة ، لأن من أوتي ذلك فهو الافضل ، وعليه يؤخذ الميثاق و(ما) بمعنى الذي . فأما من في اللام فهي لام الابتداء ، وهي جواب لما دل عليه الكلام من معنى القسم ، لان أخذ الميثاق انما يكون بالايمان والعهود ، فاللام جواب القسم و(ما) بمعنى

الذي في موضع رفع بالابتداء والهاء محذوفة من (آيتكم) تقديره للذي آيتكم من كتاب ، والخبر ؛ (من كتاب وحكمة) و(من) زائدة وقيل : الخبر (لتؤمن به) وهو جواب قسم محذوف تقديره : والله لتؤمن به ، والعائد من الجملة المعطوفة على الصلة - على ما - محمول على المعنى عند الانخس لان (لما معكم) معناه لما أتيتموه - من الكتاب - كما قال : (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) فحمله على المعنى في الضمين اذ هو بمعنى فان الله لا يضيع أجرهم ولا بد من تقدير هذا العائد في الجملة المعطوفة على الصلة وهي : (قد جاءكم رسول مصدق لما معكم) فهما جملتان لموصولين وحذف الثاني للاختصار ، وقام حرف العطف مقامه ، فلا بد من عائدين في الصلتين على الموصولين.

ويحتمل أن يكون العائد من الصلة الثانية محذوفاً تقديره : ثم جاءكم رسول به ، أي بتصديقه ، أي بتصديق ما آيتكموه ، وهذا الحذف على قياس ما أجاز الخليل من قوله : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً ، أي بالذي هو قائل لك شيئاً ، وكما قرأ في سورة الانعام : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن كل شيء) بالرفع أي على الذي هو أحسن ، ثم حذف الضمير من الصلة ، وانما يبعد هذا الحذف من الضمير لاتصال الضمير بحرف الجر فالمحذوف من الكلام هو ضمير وحرف فبعد لذلك .

ويجوز أن (ما) في قراءة من فتح اللام للشرط فتكون في موضع نصب بـ(آيتكم) و(آيتكم) في موضع جزم بـ(ما) و(جاءكم) معطوف عليه في موضع جزم ايضاً ، وتكون اللام في (لما) لام التأكيد ، وليست بجواب القسم كما كانت في الوجه الاول ، ولكنها دخلت لتلقى القسم بمنزلة اللام في : (لئن لم ينته المنافقون) فهي تنذر باتيان القسم بعدها وهو قوله (لتؤمن به) كما كانت (لئن) انذاراً للقسم في قوله

(لنغرينك) فهي توطئة للقسم وليست بجواب للقسم ، كما كانت في الوجه الاول ، لان الشرط غير متعلق لما قبله ، ولا يعمل فيه ما قبله ، فصارت منقطعة مما قبلها بخلاف اذا جعلت (ما) بمعنى الذي لانه كلام متصل ، وما قبله جواب له وحذفها جائز : قال الله تعالى في سورة : (المائدة وان لم تنبهوا عما يقولون ليس الذي كفروا فهم عذابا أليما) . فاذا كانت (ما) للشرط لم تحتاج الجملة المعطوفة الى عائد كما لم تحتاج اليه الاولى ، ولذلك اختاره سيبويه ، لما ير في الجملة الثانية عائداً جعل (ما) للشرط .

وقد تأول قوم أن مذهب سيبويه أن (ما) بمعنى الذي والهاء فيه (به) تعود على (ما) للشرط جاز أن تعود على (رسول) والهاء في (لننصرنه) تعود على (رسول) في الوجهين جميعاً .

هذا النموذج من الجهد اللغوي ومجالاته وقدراته في تقليب وجوه المعاني اللفظية التي ترد على سياق آية على ضوء اعمال النص طبقاً لقواعد هذه اللغة الغنية ، هذا الجهد اللغوي في تقليب وجوه المعاني ووظائف اللفظ لآيات الذكر الحكيم يعطينا الدليل للمدخل الاساسي في فهم معطيات القرآن الكريم عند علماء المسلمين حين جعلوا من علوم القرآن الكريم تخصصات عديدة تحتاج الى طاقة مؤمنة وروح اسلامية مخلصه تتوفر لها فوق ثقافة اللغة ومعرفة أسرارها عوامل كثيرة أبسطها نقاء السريرة ، ونظافة القلب وسلامته من أمراض المادية والمذهبية ، ليتيسر للباحث الدخول في أمن وطمأنينة على كتاب الله .

المحكم والمتشابه في القرآن الكريم :

هذا الموضوع الشائك والخطير هو الذي كان وراء ظهور كثير من الفرق الاسلامية ، بل وكان الباعث الاول لنشأة (علم الكلام) عند

المسلمين .. وما جره هذا العلم أحياناً من ثقافة دخيلة على الاسلام وجوهر عقيدة التوحيد فيه ، ولقد انبرى كثير من علماء المسلمين أمام ظواهر بعض النصوص القرآنية التي تفرق دلالات مفردات تركيبها من استعمال لآخر فتصدوا لهذا الامر وخصصوا له دراسات مطولة ومذاهب عديدة ، ولا يزال الامر حتى اليوم يحتاج منا الى وقفة نستعرض فيه اسلوب المعالجة الذي تناول به المسلمون هذا الامر الخطير .. وذلك لان بعض الشبه التي قد يثيرها أعداء الذكر الحكيم من المستشرقين والمبشرين ومن العناصر المحسوبة على الاسلام من أولئك الذين تربوا حتى أترعوا على ثقافات أعجمية صليبية أو مادية شيوعية لا تزال حتى اليوم تجد لها آذاناً صاغية وفارغة وخاصة أولئك الذين لم تستقم ألسنتهم على ذكر كتاب الله ولم تخشع قلوبهم له بفعل عوامل كثيرة أبسطها هذا .. (الاستغراب) الذي يكاد يفتحهم الوجدان العربي حتى في هذه المرحلة التي تبدو فيها بشائر العودة للايمان قوية وواضحة في مواقع كثيرة في أرض المسلمين .

هذا .. ويطالعنا من بين الجهود الاسلامية العملاقة ذلك التراث النقي الذي تركه لنا القاضي : عبد الجبار بن احمد الهمزاني المتوفي سنة ٤١٥هـ في كتابه (متشابه القرآن) و(تنزيه القرآن عن المطاعن) .. وقد عالج الرجل في كتابه الاول قضية (المتشابه والحكم في كتاب الله بصبر المؤمن وبصيرة العالم ، ومهما يكن من أمر للرجل وانتمائه الى مذهب (الاعتزال) الا أنه في هذا الكتاب عمد الى الآيات المتشابهة فأولها وبيّن حقيقة المراد منها ، كما وقف عند كثير من الآيات المحكمة ففسرها وأصل الاستدلال بها ، كل في موضوعه الخاص .

وقد قام الرجل بتأويل الآيات التي قد يخالف ظاهرها أدلة التوحيد فعلى منهجه أولها على أصول اللغة العربية بما يطابق هذه الأدلة . وهذا المنهج

العقلي الذي ينطلق منه القاضي في تفسير القرآن وفي الحكم على المحكم والمتشابه يؤكد في مناسبات كثيرة ، ويدل عليه بعبارات مختلفة ، فكلما يقول الدكتور : عدنان زرزور في تحقيقه لكتاب القاضي عبد الجبار في متشابه القرآن ، نجده يرد على من يدعي أن القرآن متناقض في دلالة فيقول : انهم قد أتوا في ذلك من جهة الجهل بالله تعالى وما يجوز عليه وما لا يجوز .. ويسترسل القاضي في تقريره الى ان ينتهي منه ويقول : (فاذا ثبت ما قدمناه ، لم يمكنهم ادعاء الاختلاف والمناقضة فيه ، لأن محكمه ومتشابهه سواء) ..

هذا .. وفي كيفية الاستدلال بالقرآن الكريم على ما يدل عليه يقول القاضي عبد الجبار بن أحمد : اعلم أن كل فعل لا تعلم صحته ولا وجه دلالة الا بعد أن يعرف حال فاعله ، ولا يمكن أن يستدل به على اثبات فاعله ولا على صفاته ، وانما يمكن أن يستدل به على ما سوى ذلك من الاحكام ، لانه ان دل على حال فاعله ، ولا يعلم صحته الا وقد علم فاعله ، أدى ذلك الى أنه لا يدل عليه الا بعد المعرفة به ومتى علم الشيء استغنى عن الدلالة عليه .

ثم يقول : ويبطل ذلك من وجه آخر : وهو أنه يؤدي الى أن لا تعلم صحة القرآن الا بعد معرفة الله تعالى ، ولا تعرف الله تعالى الا بعد معرفة القرآن ، وذلك يوجب أن يدل كل واحد منهما على ما يدل عليه ، وأن يكون دليلا على نفسه ، فان قال قائل : ومن أين أن صحة القرآن لا تعلم الا بعد معرفة الله ؟ قيل له : لان الخبر لا يعلم بصيغته أن صدق أو كذب : حتى اذا علم حال المخبر ، صح أن نعلم ذلك وقد علمنا أن ما أخبر عز وجل عنه في القرآن الكريم لم يتقدم عنا العلم بحال خبره فيجب أن لا يعلم أنه صدق الا بعد العلم بحال المخبر ، وأنه حكيم .

فان قال : ومن أين أن وجه دلالاته لا تعلم الا معرفة الله تعالى ، قيل له لانه انما يدل بأن يصدر من حكيم لا يجوز أن يختار الكذب والامر بالقبيح ومتى لم يكن فاعله بهذه الصفة لم يعلم وجه دلالاته فيجب أن يعلم أولاً أنه عز وجل حكيم لا يختار القبيح حتى يصبح أن يستدل بالقرآن الكريم على ما يدل عليه ، وذلك يمنع من أن يستدل به على اثباته تعالى واثبات حكمته .

وبعد ، فليس يخلو من خالف في ذلك من أن يقول : أخبار القرآن تدل مع التوقف في كونها من قبيل الصدق أو يقول : انها لا تدل الا وقد علم أنها صدق .. ولا شبهة في فساد الاول لان كل خبر كونه كذباً غير دال على حال مخبره ، واذا صح ذلك فلا بد من أن يعلم كونه صدقاً ، ولا يخلق العلم بذلك بدون أن يرجع الى نفس الخبر ، أو الى خبر سواه ، أو الى دليل العقل .

ولا يصح أن يعلم أن الخبر صدق بنفسه لانه انما يدل على حال غيره لا على حال نفسه وان علم أنه صدق بخبر آخر ألم يخل من ان يكون وارداً عن الله عز وجل ولا يجوز أن يرجع الى خبر غيره ، وخبره عز وجل اذا رجع اليه ولما علم حاله في الحكمة فكأنه استدل على أنه صادق في سائر أخباره ، ومتى جوز في سائر أخباره الكذب يجوز في هذا الخبر مثله فلا يصح التعلق به ، ولذلك قلنا : ان المجسمة اذا جوزت عليه عز وجل أن يفعل القبيح لا يمكنها المعرفة بصدقه عز وجل لا من جهة العقل ولا من جهة السمع .. وكل ذلك يوجب أن يرجع في دلالة القرآن الكريم أن يعرف تعالى بدليل العقل وأنه حكيم لا يختار فعل القبيح ليصح الاستدلال بالقرآن الكريم على ما يدل عليه ، وان قال قائل : ان صح أن يستدل عليه تعالى بسائر أفعاله قبل أن يعرف ، فهلا جاز أن يستدل بالقرآن عليه قبل

أن يعرف ؟ قيل له : ان الكلام لا يدل على ما يدل عليه لأمر يرجع وانما يدل لكون فاعله حكيماً ، ولذلك لم يدل كلام النبي صلى الله عليه وسلم على الاحكام الا بعد العلة بأنه رسوم حكيم لم يظهر المعجز عليه الا لكونه صادقاً في سائر ما يؤديه ، وليس كذلك دلالة الفعل على أن فاعله قادر ولانه انما يدل لامر يرجع اليه لا يتعلق باختيار مختار هو أن الفعل اذا صح من واحد وتعذر على من هو بمثل حاله فلا بد من أن يختص بأمر له صح الفعل منه ، وهذه الجملة لا تتعلق بالاختيار ، فلذلك يصح أن يستدل بالحوادث التي لا يجوز أن تحدث من الاجسام على الله تعالى وعلى أنه قادر عالم ، وليس كذلك حال القرآن .

يقول القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني في متشابه القرآن : ان ما ذكرناه يبين أنه لا شبهة في أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهور المعجز ، يدل على انه قادر عالم ، ولم يجب أن يدل كلامه على الاحكام على هذا الحد ، بل احتيج الى ظهور المعجز ومعرفة حال المرسل وحكمته .

فان قال قائل : ان كان الامر كما ذكرتم ، فيجب أن تكون الاخبار الواردة في القرآن الدالة على الله عز وجل وعلى حكمته عبثاً لا فائدة فيها ، لان الاستدلال بها لا يمكن ، ويجب أن يعرف عز وجل بتوحيده وعدله أولاً ، ثم يعلم صحتها قيل له : انه عز وجل انما خاطب بذلك ليعت السائل على النظر والاستدلال بما ركب في العقول من الادلة ، أو لانه علم أن المكلف عند سماعه والفكر فيه يكون أقرب الى الاستدلال عليه منه لو لم يسمع ذلك ، فهذه الفائدة تخرج الخطاب من حد العبث .

يبين ذلك ان الداعي منا الى الله عز وجل متى قصد الى جاهل به فدعاه ، وعرفه طريقة معرفته ومعرفة توحيده وعدله ، لا يجوز أن يعد عبثاً في دعائه ، ولم يصح من المدعو أن يعرفه عز وجل بنفس دعائه دون

أن ينظر ويتدبر ، فكذلك القول في كلامه عز وجل ، سيما ومن اعتقد في القرآن الكريم قبل أن يعرف الله ، أنه كلامه على جهة التقليد ، وأنه تعالى لا يجوز أن يكذب ، كان ذلك أدعى له الى النظر من خطاب الداعي الذي لا يعتقد تعظيم حاله ، ولهذه الحملة عدل الانبياء عليهم السلام عند مسألة قومهم لهم عن الله عز وجل على ذكر أفعاله تعالى من خلق السموات والارضين وغير ذلك ، فان قال قائل ، فيجب أن لا يعلم بالقرآن الحلال والحرام الا على هذا الوجه قيل له : كذلك نقول ، الكريم لا يجوز أن يكذب في أخبار أو يعمل أو يأمر بالقبيح أو ينهي عن الحسن ، لم يصح أن يعرف به الحلال والحرام ، لكن الاحكام يمكن أن تعلم بالقرآن من غير مقدمة اذا كانت المعرفة بالله عز وجل قد تقدمت ، ولا يصح أن يعلم بقوله : (ليس كمثل شيء) من غير تقدم العلم بأنه تعالى ليس بجسم انه تعالى لا يشبه الاشياء لما قدمنا من أنه لا يصح أن يعرف الفاعل وحكمته بالفعل الذي يصدر عنه . اذا كان العلم بصحته ووجه دلالته لا بد من أن فيه الى حال الفاعل ، وعلى هذا الوجه قلنا : ان المعجزات لما كانت بمنزلة الاخبار في أنها لا يمكن أن يعلم أنها صحيحة الا بعد العلم بحال الفاعل وحكمته ، ولم يمكن أن يستدل بها على النبوات من جاز على الله عز وجل فعل القبيح ، وقلنا يجب أن لا نأمن أنه تعالى أظهرها على من يدعو الى الضلال والفساد ، ويصد عن الهوى والرشاد (١)

لماذا المحكم والمتشابه في القرآن الكريم ؟

يقتضي هذا السؤال منا قبل أن ندخل في محاولة الاجابة عليه أن نعرف أولاً معنى (محكم) ومعنى (متشابه) حتى نستطيع أن نتعرف عليهما في سياق الذكر الحكيم .

(١) (متشابه القرآن) للقاظمي عبد الجبار بن أحمد الهمداني المتوفي سنة ٤١٥ هـ تحقيق الدكتور عدنان محمد زوزور - القسم الاول دار التراث بالقاهرة صفحات ٤ - ٦

فالمحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت ،
والحكم الفصل بين الشئين فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين
ويميز بين الحق والباطل والصدق والكذب ويقال : حكمت السفينة وأحكمتها
إذا أخذت على يديه وحكمت الدابة وأحكمتها ، إذا جعلت لها حكمة ،
وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب ومنه :
الحكمة لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق واحكام الشيء اتقانه والمحكم المتقن .

وعلى هذه التعاريف فاحكام الكلام هو اتقانه بتمييز الصدق من الكذب
في أخباره ، ورب العزة سبحانه يصف القرآن الكريم جميعه بهذا المعنى
فيقول سبحانه في أول سورة هود : (ألم ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت
من لدن حكيم خبير) .

أما التشابه لغة فهو مأخوذ من التشابه : وهو أن يشبه أحد الشئين الآخر
ومن هذا المعنى (الشبهة) وهي ألا يتميز أحد الشئين من الآخر لما بينهما
من التشابه عيناً كان أو معنى .

ويقول الاستاذ الشيخ (مناع القطان) في كتابه (مباحث في علوم
القرآن) وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً وقد
وصف الله القرآن الكريم كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال (الله نزل
أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) فالقرآن كله متشابه أي أنه يشبه
بعضه في الكمال والجودة ويصدق بعضه في المعنى ويمثله ، وهذا هو الذي
يسميه الشيخ (مناع القطان) التشابه العام وعنده أيضاً أن كلا من المحكم
والتشابه بمعناه لا ينافي الآخر ، فالقرآن كله محكم بمعنى (الاتقان) وهو
متماثل يصدق بعضه بعضاً ، فان الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وان
اختلفت ألفاظه ، فاذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر
وانما يأمر به أو بنظيره .

هذا .. وينتهي الشيخ القطان الى تقرير يوجز ما انتهى اليه علماء علوم القرآن الكريم في المحكم والمتشابه فيقول : المحكم : ما عرف المزايا منه ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، والمحكم ما لا يحتمل الا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهها والمحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتاج الى بيان ، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه واحتاج الى بيان يرده .

ومن قبل مثل هذا التقرير الذي انتهى الشيخ مناع القطان في كتابه (مباحث في علوم القرآن) كان الضغط الفكري والعقائدي قديماً حول قضية المحكم والمتشابه في آيات الذكر الحكيم قد قطع شوطاً بعيداً وأخذ جهداً مضنياً ، فبعض العلماء كان يرى أن الذكر الحكيم طالما ينطوي على محكم ومتشابه فيصبح بعضه في درجة وبعضه الآخر في درجة أخرى حتى ان الامام القاضي عبد الجبار بن الهمداني في متشابه القرآن قد وضع لهذه القضية مسألة وقال فيها يجب بما رآه : ان سأل سائل فقال : أتقولون ان المحكم من القرآن له مزية على المتشابه فيما يدل عليه أولاً مزية له ؟ واسترسل القاضي في تصور السؤال أو تصوير حال خصوم القرآن الكريم وتقرير حال الجاهلين به ، فقال في تنمة السؤال فان قلتم : انهما أي المحكم والمتشابه سواء ، فذلك خلاف الاجماع لأن الامة تقول : ان المحكم أصل للمتشابه ، وان له من الحفظ ما ليس للمتشابه ، وكتاب الله عز وجل قد نطق بذلك في قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليه الكتاب منه آيات محكمات وآخر متشابهات) وان قلتم : انه يدل على وجه لا يدل عليه المتشابه نقضتم الاصل الذي قدمتم الآن لانكم ذكرتم أن جميع كلامه تعالى سواء سواء في أنه انما يدل بعد أن يعرف عز وجل أنه حكيم ، واذا كان الامر كذلك فما الفائدة في الفصل بين المحكم والمتشابه ؟ وهلا دلكم ذلك على فساد هذا الاصل ، قيل له ان هذا الذي نقوله لا ينقض ما ذكرناه

من الاصل ولا يخرج من الاجماع والكتاب وذلك أن المحكم كالمتشابه من وجه وهو يخالفه من وجه آخر ، فأما الوجه الذي يتفقان فيه فما هو متفق عليه من أن الاستدلال بهما أجمع لا يمكن الا بعد معرفة حكمة الفاعل ، وأنه لا يجوز أن يختار القبيح ، لان الوجه الذي له قلنا ذلك لا يميز المحكم من المتشابه ، كما أن خطابه صلى الله عليه وسلم ، لما لم يمكن أن تعلم صحته الا بالمعجز ، ولم يميز ذلك بين المحتمل من كلامه وبين المحكم منه حلا محلا واحداً في هذا الباب .

وأما الوجه الذي يختلفان فيه فهو أن المحكم اذا كان في موضوع اللغة أو القرينة لا يحتمل الا الوجه الواحد ، فمتى سمعه من عرف طريقة الخطاب وعلم القرائن أمكنه أن يستدل في الحال على ما يدل عليه وليس كذلك المتشابه ، لأنه وان كان من العلماء باللغة ويحمل القرائن فانه يحتاج عند سماعه الى فكر مبتدأ ونظراً يحمله على الوجه الذي يطابق المحكم أو دليل العقل .

ويبين صحة ذلك أنه عز وجل بين في المحكم أنه أصل للمتشابه فلا بد أن يكون العلم للمتحكم أسبق ليصح جعله أصلاً له ، ولا يتم ذلك الا على ما قلناه . فاذا كان المحكم والمتشابه واردين في التوحيد والعدل ، فلا بد من بنائهما على أدلة العقول لانه لا يصح من لا يعلم أنه عز وجل واحد حكيم لا يختار فعل القبيح ، أن يستدل على أنه عز وجل بهذه الصفة ، فالمحكم في هذا الوجه كالمتشابه ، وانما يختلفان في طريقة أخرى وهي ان المخالفين في التوحيد والعدل ، يمكن أن نجاحهم بذكر المحكم ، ونبين مخالفتهم لما أقرؤا بصحته في الجملة ، ويبعد ذلك في المتشابهة .. فاما أن نبين للجاهل بالله تعالى وبحكمته أن الله عز وجل لا يختار فعل القبيح ، وأنه لا يشبه الاعراض والاجسام ، والقرآن محكمه ومتشابه سواء فذلك مما لا يصح ، ولهذا الجملة يجب أن يرتب المحكم والمتشابه جميعاً على أدلة

العقول ويحكم بأن ما لا يحتمل الا ما تقتضيه هذه الجملة ، يجب أن يثبت محكما ، وما احتمل هذا الوجه وخلافه فهو المتشابه ، فأقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول ، وان كان ربما يقوى ذلك بما يتقدم المتشابه أو يتأخر عنه ، لانه هو الذي يبين أن المراد به ما يقتضيه المحكم ، ومما يبين أن ذلك موضوع اللغة ، يقتضي أنه لا كلمة في مواضعها الا وهي تحتمل غير ما وضعت له ، فلو لم يرجع الى أمر لا يحتمل ، لم يصح التفرقة بين المحكوم والمتشابه .

وهذه القضية المتناهية في الدقة حول ما يتعلق بكتاب الله عز وجل من حيث وجوب العمل بآياته ، جعلت العلماء في الاسلام يخصصون لها دراسات وبحوث عديدة بعد ان استقر عندهم ان المحكم في آيات الذكر الحكيم : هو الذي لا يتطرق اليه النقص والاختلاف وأن المتشابه : فهو ما يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والاعجاز (١).

هذا .. وقد ذهبوا الى تعريف المحكم والمتشابه تعريفات عديدة وان كانت بمفاهيم متقاربة ، فقد ذهب بعض العلماء كما يقول السيوطي في الاتقان (٢) الى أن عرف المحكم بأنه : ما عرف المراد منه ، اما بالظهور واما بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، وخروج الدجال وبأجوج ومأجوج ، والحروف للقطعة في أوائل السور .

وقال الماوردي : المحكم ما لا يحتمل الا وجهاً واحداً والمتشابه بخلافه وقيل المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص

(١) (معترك الافران في اعجاز القرآن) للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن ابي بكر السيوطي . تحقيق (علي محمد البجاوي) - القسم الاول ص ١٣٦ - دار الفكر العربي القاهرة عام ١٩٦٩ .

(٢) المصدر السابق صفحة ١٣٦

الصيام برمضان دون شعبان ، وقيل المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه الا برده الى غيره . وقد روي عن عكرمة وقتادة وغيرهما أن المحكم الذي يعمل به ، والمتشابه الذي يؤمن به ولا يعمل به (١) .

واختلف أيضاً ، هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه أو لا يعلمه الا الله ؟ على قولين في ذلك ، منشؤهما الاختلاف في فهم قوله تعالى : (والراسخون في العلم يقولون) هل هو معطوف ويقولون حال ، أو مبتدأ خبره يقولون ، والواو للاستئناف .

وعلى الاول طائفة يسيرة ، منهم مجاهد وهو راوية عن ابن عباس ، فأخرج ابن المنذر عن طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم) . قال أنا مما أعلم تأويله ، وأخرج عبيد بن حميد عن مجاهد في قوله : (والراسخون في العلم) قال يعلمون تأويله ، ويقولون آمنوا به (٢) .

وأخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك قال : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ولا محكمه من متشابهه . واختار هذا القول النووي فقال في شرح مسلم انه الاصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لاحد من الخلق الى معرفته .

وأخرج ابن مردويه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعلموا به وما تشابه منه فامنوا به (٣) .

(١) المصدر السابق صفحة ١٣٧

(٢) المصدر السابق صفحة ١٣٨

(٣) (معترك الاقران في اعجاز القرآن) - السيوطي - القسم الاول ص ١٣٩

هذا .. وللعلماء المشتغلين بعلوم القرآن الكريم من الجهود في محاولاتهم فهم النص القرآني ، ما يعطي الدلالة الواضحة على مدى تأثير كتاب الله تعالى على قلوب المؤمنين ، وما يكشف عن تعلقهم لمحاولة فهمه ، فقد أورد الامام السيوطي في كتابه (معترك الاقران في اعجاز القرآن) للمتشابه أضرباً ثلاثة وجعلها كآلآتي :

متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ومن جهتهما معاً أي اللفظ والمعنى . فالأول ضربان ، أحدهما يرجع الى الالفاظ المفردة اما من جهة الغرابة نحو : اللازب ، وينزفون ، أو الاشتراك كاليد والعين .

وثانيهما يرجع الى جملة الكلام المركب ، وذلك ثلاثة أضرب : ضرب لاختصار الكلام نحو : (وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا ما طاب من النساء) . وضرب لبسطه نحو : (ليس كمثل شي ء) لانه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع وضرب لنظم الكلام نحو : (أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيماً) (تقديره) أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً) .

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى ، وأوصاف القيامة ، فان تلك الصفات لا تتصور لنا ، اذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو ليس من جنسه .

والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب : الاول من جهة الكمية كالعموم نحو (ناقلوا) . والثاني من جهة الكيفية ، كالوجوب والندب نحو : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) .

والثالث من جهة الزمان ، فالناسخ والمنسوخ نحو : (اتقوا الله حق تقاته) والرابع من جهة المكان والامور التي نزلت فيها نحو : (وليس البر بأن

تأتوا البيوت من ظهورها) . (انما النسيء زيادة في الكفر) . فان من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية .

والخامس من جهة الشروط التي يصح بها العمل ويفسد ، كشروط الصلاة والنكاح ، وهذه الحملة اذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم .

ثم جميع المشابه على ثلاثة أضرب ، ضرب لا سبيل الى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك .

وضرب للانسان سبيل الى معرفته كالألفاظ العربية والاحكام المغلفة ، وضرب متردد بين الامرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم ، وهو المشار اليه بقوله صلى الله عليه وسلم (لابن عباس) : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) .

هذا .. وقد انتهى الامام فخر الدين الى أن صرف اللفظ عن الراجح الى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل ، وهو اما لفظي واما عقلي ، واللفظي لا يمكن اعتباره في المسائل الاصولية ، لانه لا يكون قاطعاً لانه موقوف على انتفاء الاحتمالات العشرة المعروفة وانتفاؤها مظنون والوقوف على المظنون مظنون ، والظن لا يكتفى به في الاصول .

وأما العقلي فانه يفيد صرف اللفظ عن ظاهره لكون الظاهر محالاً .

وأما اثبات المعنى المراد فلا يكون بالعقل لان طريق ذلك ترجيح مجاز على مجاز ، وتأويل على تأويل ، وذلك الترجيح لا يمكن الا بالدليل اللفظي ، والدليل اللفظي في الترجيح ضعيف لا يفيد الا الظن ، والظن لا يعول عليه في المسائل الاصولية - القطعية - فلهذا اختار الائمة من السلف ومن الخلف بعد

اقامة الدليل القاطع على أن حمل اللفظ على ظاهره محال ترك الخوض في تفسير التأويل .

هذا هو القرآن الكريم كما انتهى الى المسلمين باثاره العلمية منذ تركه على الهيئة التي تبان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل هناك أبسط مجال للمقارنة بين مفارقات وتهافت معظم أفكار وقضايا « الكتاب المقدس » بعهديه القديم والحديد التي صيغت على أيدي الاحبار خلال ألفي عام على الأقل ، وبين كل هذه الضوابط التي لا نظير لها على وجه الارض والمتصلة بكتاب الله تعالى الذي يحمل بين مقوماته خصائص قدسيته وصيافته وحفظه ، نعتقد أنه لا وألف لا ، ومن هنا فالقرآن الكريم يصبح الكتاب السماوي الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد ، وهو الحكم الفصل في كل ما يتعلق بتاريخ بني اسرائيل لأنه بنور آياته أضاء العالم امكان الوقوف والتعرف على سيرة الاطهار من خلق الله الذين اصطفاهم واجتباهم وجعلهم قدوة وهداية رحمة منه لخلقه .

وقبل أن ننظر الى بعض آيات الذكر الحكيم وهي تتناول سيرة وتاريخ أنبياء بني اسرائيل بحكم نظرة الاسلام اليهم على أنهم عناصر كريمة اصطفاهم الله تعالى بالنبوة والرسالة الالهية وجعلهم بعض رسله وأنبيائه للناس ، نحب أن نشير الى قضية طالما رأينا حولها الكثير من الافكار والآراء وتتعلق بموضوع كتاب الله وتاريخ تدوينه وأعني بها قضية النسخ في القرآن الكريم وذلك حتى تكتمل الصورة تماماً أمام الباحث في كتاب الله الذي قد يتصور أن ما وقع في مصادر تراث بني اسرائيل في العهد القديم وقع في كتاب الله الحكيم أيضاً .

الفصل الثامن

معنى النسخ في القرآن الكريم :

يقع النسخ في كلام العرب على عدة وجوه منها قولهم : : نسخت الكتاب اذا نقلت ما فيه الى كتاب آخر ، فهذا لم يتغير المنسوخ منه ، انما صار له نظيراً في لفظه ومعناه وهما باقيان .

ومنها قولهم : نسخت الريح الآثار ، اذا أزالتها فلم يبق منها عوض ، ولا حلت الريح محل الآثار ، بل زالا جميعاً .

ومنها قولهم نسخت الشمس الظل اذا أزالته وحلت محله ، وعلى هذه الوجوه في معنى النسخ على لسان العرب ترى في أي وجه وعلى أي معنى يكون (النسخ) الذي ورد ذكره في كتاب الله تعالى ، أو ما الذي يمكن أن نفهمه من النسخ الذي ورد في الذكر الحكيم وعلى ضوء لغة العرب .

وقبل أن نحاول تقرير ما نذهب اليه في هذا الموضوع الجليل ، فانا نود أن نؤكد : أن الوحي الالهي من الله تعالى لرسله جميعاً في مجال الايمان بالله ، أي في موضوع توحيد الألوهية له وحده ، والاقرار بالربوبية له سبحانه ، لم يطرأ عليه في رسالة أي رسول أرسله الله وأنزل عليه وحياً أي تغيير أو تبديل ، ففي مجال العقيدة الواحدة التي أوحى بها الله الى أنبيائه ، لا نسخ ولا تبديل ولا تعديل ولا تغيير فرب العزة يقول في سورة الانبياء للخاتم محمد صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا

فاعبدون) . أما ما تبقى بعد ذلك مما يترتب على هذه العقيدة الموحدة لرب العالمين ، فمطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في عصر آخر (١) .

ويبقى معنا بعد ذلك أن نسأل عن أي ضرب من الوجوه التي أوردناها من اللسان العربي في معنى النسخ هو الذي يمكن أن يقربنا ويحدد لنا المراد مما ورد ذكره في كتاب الله تعالى ، في منسوخ القرآن الكريم وناسخه .

يقول العلامة المحقق : (أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي) في كتابه (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه) من معاني النسخ قول الرب : نسخت الشمس الظل اذا ازالته وحلت محله ، وهذا المعنى هو الذي عليه الجمهور في منسوخ القرآن وناسخه وذلك على ضربين : أحدهما أن يزول حكم الآية المنسوخة بحكم آية أخرى متلوة أو بخبر متواتر ، ويبقى لفظ المنسوخة متلوّاً نحو قوله تعالى في الزواني : (فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت) .. الآية . وقوله تعالى : (واللذان يأْتياهما منكم فاذوهما) فأمر فيهما بالسجن والضرب ، ثم نسخ ذلك بالرجم في المحصنين الذي تواتر به الخبر ، والعمل المنسوخ لفظ تلاوته ، وبالجلد مائة في المذكورين المذكورين في سورة النور فهذا مثال ما نسخ حكمه بحكم آخر وبقي لفظه متلوّاً .

والضرب الثاني أن تزول تلاوة الآية المنسوخة مع زوال حكمها وتحل الثانية محلها في الحكم والتلاوة ، وهذا انما يؤخذ عن طريق الاخبار الثابتة وذلك نحو ما تواتر النقل عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : « كان نحو نزل من القرآن عشر معلومات . تريد يحرمين ، قالت عائشة فنسخت خمس رضعات معلومات يحرمين فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن مما يقرأ من

(١) (مناع القطاني) مباحث في علوم القرآن صفحة ٢٣١

القرآن (١) . فهذا يدل على قول عائشة غريب في الناسخ والمنسوخ ، الناسخ غير متلو والمنسوخ غير متلو ، وحكم الناسخ قائم ولهذا المعنى اختلف في ذلك .. فالعشر رضعات عند مالك وأهل المدينة نسخ لفظهن وحكمهن بقوله : (وأخواتكم من الرضاعة) فرضعة واحدة عندهم تحرم فهذا قول حسن الناسخ فيه متلو والمنسوخ غير متلو ، وله نظائر كثيرة في الناسخ والمنسوخ وليس له على قول عائشة رضي الله عنها نظير فيما علمته (٢) ، وأخذ الشافعي بأنه لا يحرم الا خمس رضعات على ظاهر الحديث ، وقد روى هذا الحديث عن عائشة ، القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبدالله بن أبي بكر ، ومحمد بن عمرو ابن حزم يرفعانه الى عائشة ، ورواه يحيى بن سعيد الانصاري ، ولم يذكر فيه يحيى : (فتوفي رسول الله وهن مما يقرأ . وهذا هو الصحيح عند أهل العلم بالاصول ، اذا لا يجوز النسخ الا قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وغير جائز أن يتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرآن يتلى ثم يجمع المسلمون على اسقاطه من التلاوة بعده .

هذا هو ما انتهى اليه علماء المسلمين مما وقع في أيديهم من أحاديث وأخبار تعلقت بهذا الموضوع الجليل وما استقروا عليه واتفقوا جميعاً حوله على ضوء ترجيح الروايات الصحيحة على غيرها هو أنه لم يصح ابداً أن وجد قرآن كان يتلى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخ منه شيء فما حدث في أمر

(١) (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة اصوله واختلاف الناس فيه) : (تأليف أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفي سنة ٤٣٧ هـ تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات - الطبعة الاولى عام ١٣٩٦ هـ - ١٨٧٦ م كلية الشريعة بالرياض جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

(٢) المصدر السابق

النسخ هو قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حتى قبل وفاته بفترة غير قصيرة والوحي لما ينزل يراجعه صلى الله عليه وسلم في أمر القرآن الكريم ما نسخ منه وما لم ينسخ (١) .

أ) هل يجوز النسخ في القرآن ؟

يقول رب العزة في سورة الرعد : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وابن عباس رضي الله عنه يقول في معنى هذه الآية : يمحو ما يشاء من أحكام كتابه فينسخه ببدل أو غير بدل ، ويثبت ما يشاء فلا يمحوه ولا ينسخه (وعنده أم الكتاب) يقول فيها ابن عباس : عنده ما ينسخ ويبدل من الآي والأحكام ، وعنده ما لا ينسخ ولا يبدل كل في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ .

هذا .. ويستدل جماعة من العلماء على جواز النسخ في القرآن يقول الله تعالى في سورة الحج : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) .

ويدل أيضاً على جواز النسخ في القرآن قوله تعالى في سورة النحل : (واذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل ، قالوا إنما أنت مفتر) فهذا نص ظاهر في جواز زوال حكم آية ووضع أخرى موضعها ، وذلك قطعاً قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين كان الوحي يراجعه .

وهذا في تقرير جماعة العلماء الذين خلدوا علوم القرآن ما يؤكد جواز القول بالنسخ في القرآن الكريم حين كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) للاستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي دراسة مستفيضة ، حول هذا الموضوع الجليل في كتابه (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) الجزء الاول صفحة ٢٠٨ وما بعدها وعند تفسيره لقول الله تعالى : (ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .

عليه وسلم ، فقول الله تعالى في سورة البقرة : (ما ننسخ من آية أو ننسها تأتي بخير منها أو مثلها) ما يدل في ظاهر الآية ومباشرتها على جواز النسخ للقرآن بالقرآن ، وكأن الآية تقول كما يذهب مكي بن أبي طالب القيسي : ما نرفع حكم آية ونبقي تلاوتها ، أو ننسخها يا محمد فلا تحفظ تلاوتها تأتي بخير منها لكم ، اي تأتي بآية أخرى هي أصلح لكم وأسهل في التعبد أو نأت بمثلها في العمل وأعظم في الأجر .

هذا .. ونود أن نقرر هنا أن علماء علوم القرآن قد انتهوا الى تقسيم النسخ الى أربعة أقسام :

القسم الاول : نسخ القرآن بالقرآن وفي الآيات التي أوردناها ما يكفي في التدليل على صحة وقوعه ، وهذا القسم من النسخ متفق على وقوعه .

القسم الثاني : نسخ القرآن بالسنة وتحت هذا نوعان : (١)

١ - نسخ القرآن بالسنة الاحادية والجمهور على عدم جوازه ، لان القرآن متواتر يفيد اليقين والاحاد مظنون ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون .

٢ - نسخ القرآن بالسنة المتواترة ، وقد أجازاه مالك وابو حنيفة وأحمد في رواية لان الكل وحي . قال تعالى : (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) .

وقال تعالى : (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) . والنسخ نوع من البيان ، ومنعه الشافعي وأهل الظاهر ، وأحمد في رواية أخرى كقوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسخها تأتي بخير منها أو مثلها) والسنة ليست خيراً من القرآن .

(١) (مناع القطان في كتابه) (مباحث في علوم القرآن) ص ٢٣٧

القسم الثالث : نسخ السنة بالقرآن ، ويحيزه الجمهور ، فالتوجه الى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة ، وليس في القرآن ما يدل عليه ، وقد نسخ بالقرآن في قوله تعالى : (فول وجهك شطر المسجد الحرام) . ووجوب صوم يوم عاشوراء ، وكان ثابتاً بالسنة ونسخ بقوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ومع هذا القسم من النسخ الشافعي في احدى روايته وقال : وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن ، أو بالقرآن فمعها سنة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنة .

القسم الرابع : نسخ السنة بالسنة ، وتحت هذا القسم أربعة أنواع :

(١) نسخ سنة متواترة بمتواترة .

(٢) نسخ سنة آحاد باحاد .

(٣) نسخ سنة آحاد بمتواترة .

(٤) نسخ سنة متواترة باحاد .

والثلاثة الاولى جائزة .

أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد بالقرآن في النسخ بالسنة الآحادية ، والجمهور على عدم الجواز .

(ب) ما لا يجوز أن ينسخ من القرآن

جائز ويجب الايمان به بادىء ذي بدء أن الله سبحانه وتعالى ينسخ جميع القرآن بأن يرفعه من صدور عباده ، ويرفعه بغير عوض ، وقد جاءت في تأييد ذلك أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم دليلها قول الله تعالى لنبيه عليه السلام في سورة الاسراء : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) .

وقد كان من ذلك بعضه على ما روى من سورة الاحزاب ، وانما يؤخذ ما كان من ذلك من طريق الاخبار ، والله سبحانه أعلم بصحتها ، وما رفع لفظه ان يتلى وبقي حفظه غير متلو على أنه قرآن وثبت حكمه بالاجماع (كاية الرجم) ، فالرواية المشهورة أنه كان فيما يتلى : (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة) فرفع رسم ذلك من المصحف المجمع عليه ، ولم تثبت تلاوته ، وبقي حكمه ولم ينس لفظه .

والذي هو عمدة هذا الباب هو ما يزيل الله - جل ذكره - حكمه ويبدله بغيره من حكم متلو (١) ويبقى المنسوخ متلوأ غير معمول به ، أو يزيل حكمه ولفظه بحكم آخر متلو وهذا كله انما يجوز في الاحكام والفرائض والاوامر والنواهي والحدود والعقوبات من أحكام الدنيا .

وأما الذي لا يجوز في حق الله تعالى فهو كل ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى ان سيكون ، أو كان ، أو وعد الله به عباده المؤمنين ، أو قصص على عباده بعضاً من أخبار الامم الماضية ، وما نص الله سبحانه عليه من أخبار الجنة والنار والحساب والعقاب والبعث والحشر وخلق السماوات والارض ، وتخليده الكفار في النار والمؤمنين في الجنة وهذا كله ومثله لا يجوز نسخه لأن الله سبحانه وتعالى يتعالى عن ان يخبر عن الشيء على غير ما هو به ، وكذلك ما أعلمنا به من صفات تعالى ، لا يجوز في ذلك كله أن ينسخ ببديل منه . فأما جواز أن ينسخ سبحانه ذلك كله بازالة حفظه من الصدور ونعوذ بالله تعالى من ذلك ، فذلك جائز في قدرته تعالى يفعل ما يشاء ، وصدق رب العالمين حيث يقول لنبيه الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم في سورة الاسراء : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ، الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيراً) .

(١) (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه) لأبي محمد مكي ابن ابي طالب القيسي المتوفي سنة ٤٣٧ هـ صفحة ٥٧

ويقسم علماء القرآن الناسخ والمنسوخ الى أقسام ، وبيان أقسام المنسوخ عندهم ستة أقسام .

الاول : ما رفع الله سبحانه رسمه من كتابه الكريم بغير بدل منه ، وبقي حفظه في الصدور والاجماع على تلاوته ، على أنه قرآن نحو آية الرجم : (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة) .

القسم الثاني : فيما أورده (مكي بن أبي طالب القيسي) : ما رفع الله حكمه من الآي بحكم آية أخرى ، وكلاهما ثابت في المصحف المجمع عليه متلوأ ، وهذا هو الاكثر في المنسوخ ، ولا يكون في الاخبار على ما قدمنا ، وتمثيله في آية الزواني المنسوخة بالجلد المجمع عليه في سورة النور كلاهما باق متلو كله .

القسم الثالث : ما فرض العمل به لعلة ، ثم زال العمل به لزوال تلك العلة وبقي ثابتاً متلوأ في المصحف نحو قوله تعالى : (وان فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار) وقوله تعالى في سورة الممتحنة (واتوهم ما أنفقوا واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا) وقوله تعالى في سورة الممتحنة أيضاً . (فعاقبتم فاتوا الذين ذهبوا زواجهم مثل ما أنفقوا) أمروا بذلك كله وفرض عليهم بسبب المهادنة ، التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش في السنة السادسة من الهجرة في غزوة الحديبية ، فلما زالت المهادنة وزال وقتها سقط العمل بذلك كله ، وبقي اللفظ ثابتاً متلوأ في المصحف .

القسم الرابع : ما رفع الله رسمه وحكمه وزال حفظه من القلوب ، وهذا النوع انما يؤخذ بأخبار الآحاد وذلك نحو ما روى (عاصم بن بهدلة المقرئ) وكان ثقة مأموئاً عن زر : انه قال : قاللي أبي يازر ان كانت سورة الاحزاب لتعدل سورة البقرة .

القسم الخامس : ما رفع الله سبحانه رسمه من كتابه فلا يتلى ، وأزال حكمه ولم يرفع حفظه من القلوب ، ومنع الاجماع من تلاوته على أنه قرآن ، وهذا أيضاً إنما يؤخذ من طريق الاخبار ، على نحو ما ورد من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في العشر رضعات والخمس ، فالأمة مجمعة على ان حكم العشر غير لازم ولا معمول به عند احد ، وانما وقع الاختلاف في التحريم برضعة على نص القرآن في قوله في سورة النساء : (واخوانكم من الرضاعة) او بخمس رضعات على قول عائشة انها نسخت العشر وكانت مما يتلى .

القسم السادس : ما حصل من مفهوم الخطاب فنسخ بقرآن متلو وبقي المفهوم منه متلوأ نحو قوله تعالى « ولا تقربوا الصلاة وانتم سكارى » فهم من هذا الخطاب ان السكر في غير قرب الصلاة جائز فنسخ ذلك المفهوم قوله : « فاجتنبوه » الى قوله : فهل انتم منتهون فحرم الخمر والسكر مثل الخمر وبقي المفهوم ذلك منه متلوأ قد نسخ ايضاً بما نسخ ما فهم منه فيكون فيه نسخان ، نسخ حكم ظاهر متلو ، ونسخ حكم ما فهم من متلوه .

وبقي من المنسوخ قسم سابع وهو نسخ السنة بالقرآن المتلو :

السابع : نحو ما نسخ الله من فعل النبي وأصحابه مما كانوا عليه من الكلام في الصلاة فنسخه الله بقوله : (وقوموا لله قانتين) ونحو (استغفاره) صلى الله عليه وسلم لعنه ابي طالب فينسخه الله بقوله : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وهو كثير .

وقد يدخل في هذا نسخ القبلة نحو بيت المقدس على قول من قال أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى اليها باجتهاده لا بنص من الله ، فاما من قال انه صلى الله عليه وسلم صلى اليها بأمر من الله له بدليل قوله تعالى : (وما جعلنا

القبلة التي كنت عليها) فليس من هذا النص وهو من الفصل الثاني لان (الناسخ والمنسوخ متلوان باقيان) .

هذا .. وأقسام الناسخ من القرآن يأتي عند علماء القرآن على ثلاثة أقسام الاول : أن يكون الناسخ فرضاً نسخ ما كان فرضاً ، ولا يجوز فعل المنسوخ نحو قوله تعالى : (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم) فرض الله فيها حبس الزانية حتى تموت او يجعل الله لها سبيلاً ثم جعل لها السبيل بالحدود في سورة النور بقوله (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فكان الاول فرضاً فنسخه فرض آخر ولا يجوز فعل الاول المنسوخ وكلاهما متلوا .

الثاني : ان يكون الناسخ فرضاً نسخ فرضاً ونحن مخبرون في فعل الاول وتركه وكلاهما متلوا وذلك نحو قوله تعالى (ان يكن منكم عشرون ضاربون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً) ففرض الله على الواحد المؤمن ألا ينهزم عشرة من المشركين ثم نسخ ذلك بقوله (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألفاً يغلبوا ألفين) ففرض على الواحد المؤمن ألا ينهزم لاثنتين من المشركين فنسخ فرض فرضاً وكلاهما متلوا ولو وقف الواحد لعشرة من المشركين فأكثر لجاز فنحن مخبرون في فعل المنسوخ وتركه .

الثالث : أن يكون الناسخ أمراً بترك العمل بالمنسوخ الذي كان فرضاً من غير بدل ونحن مخبرون في فعل المنسوخ وتركه وفعله أفضل وذلك كنسخ الله جل ذكره قيام الليل وقد كان فرضاً فنسخه بالامر بالترك تخفيفاً ورفقاً بعباده ونحن مخبرون في قيام الليل وتركه وفعله أفضل وأشرف وأعظم أجراً ، وقد قيل انه بقي فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم وحده وقوله (نافلة لك) يرد على هذا ، مع الاجماع على ان لا فرض الا في خمس صلوات .

وعن ابن عباس : نافلة لك : فرضاً عليك قال : فرض الله ذلك على النبي

خاصة ، وقد قيل : ان هذا فرض نسخه ندب - وهو قوله : (فاقروا ما تيسر من القرآن) فهذا ندب نسخ فرضاً .

ومنه قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) .. الى قوله تعالى (وكلوا واشربوا) فهذا نسخ ما كان فرضاً على من كان قبلنا من ترك الجماع والاكل والشرب ليالي الصوم بعد النوم ، وقد كان فرضه الله علينا بقوله : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) فخفف الله ذلك على المسلمين ونسخه وأباح الوطء والاكل والشرب بعد النوم الى طلوع الفجر ، ونحن نخيرون في فعل ذلك بعد النوم أو تركه .

هذا .. بعض ما جاء عن علماء القرآن في موضوع النسخ وأوجهه وأقسامه وهو كما رأينا لا يقع في ما يتعلق بالاخبار التي ساقها الله لعباده ولا يتعلق بالعقائد التي ترتب على الايمان بالله تعالى ، وانما هو قد يتعلق ببعض الاحكام والاحوال التي كانت في عصر الوحي ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المسلمين يراجعهم الوحي ، ولم تستقر بعد أحوال المسلمين فضلاً عما كانوا يتعرضون له من مواقف واطواع قد تقتضي بعض الاحكام التي قد تزول بواعتها ودوافعها وتصبح الحاجة الى مثل هذه القواعد غير ملحة أو غير ماسّة فكان النسخ يتناولها أحياناً ، ولم يقع نسخ في كتاب الله تعالى بعد مراجعة الوحي الالهي (جبريل الامين) لرسول الله صلى الله عليه وسلم عام وفاته مرتين متعاقبتين ، والهيئة التي تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتاب الله هي كما انتهت الى المسلمين حين كانوا يدونون كتاب ربهم ، وانعقد الاجماع الاسلامي عصر أصحاب رسول الله وبعد ذلك على أنه لم يقع نسخ في كتاب الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ج) دور رسول الله في المادة القرآنية :

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل لهذا الوجود سجلاً عاماً ، أثبت فيه رب العالمين سبحانه كل ما كان وما سيكون الى يوم القيامة .

والقرآن الكريم هو هذا السجل العظيم ، وهو الدستور الاسلامي الوحيد لسعادة الانسانية والاخذ بيديها ، الى كل أسباب الكمال والتقدم ، فضلاً عن السعادة العظيمة بالمعرفة الحققة لله تعالى من خلال هديه في كتابه الكريم .

ورب العزة يقول في شأن هذا الذكر الحكيم : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) . والمعنى البدهي لهذه الآية الكريمة - والله أعلم - هو أن القرآن الكريم مسجل بكل دلالاته وهيئته التي بين أيدينا اليوم في علم الله جملة واحدة ، وهذه الآية الكريمة التي وردت في سورة البروج ، تؤكد ببرهان يقيني قاطع ، أن القرآن الكريم مسجل في لوح محفوظ في وقت تعلق بعلم الله تعالى ، ومع ان اللوح المحفوظ من الغيب الذي نؤمن به ، ولسنا مطالبين وغير مقبول ان يسأل المؤمن عن طبيعة هذا اللوح ، ولا أين هو ولا متى كتب فيه ، ولا كيف سجل الذكر الحكيم فيه ، لكن الآيات الكريمة التي تتعلق بهذا الموضوع الدقيق تؤكد لنا بعد التأكد على ان القرآن الكريم (قرآن مجيد في لوح محفوظ) أنه تنزل الى السماء الدنيا في ليلة مباركة من شهر رمضان حيث يقول رب العزة في سورة الدخان : (انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين) .

ويقول سبحانه في سورة القدر : (انا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر) .

ويقول سبحانه في سورة البقرة : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ..) هذا وفي قوله تعالى : (انا أنزلناه في ليلة القدر) ما يشعر بأن مكان اللوح

المحفوظ — والله تعالى أعلم — ليس هو السماء الدنيا التي أنزل اليها القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان .

والفرق بين الانزال والتنزيل بالنسبة للقرآن الكريم كما يقول استاذنا العلامة رحمه الله الشيخ محمد محمود حجازي في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها الى كلية اصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٦٧ : ان التنزيل يختص بالموضع الذي يشير اليه انزاله مفروقاً مرة بعد الاخرى ، والانزال عام وعليه قوله تعالى (انا نحن نزلنا الذكر ... ونزلناه تنزيلاً ... ولو نزلناه على بعض الاعجم) (١) .

وحكى الله تعالى عن المنافقين فقال : (لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) ذكر في الاولى (نزل) وفي الثانية (أنزل) ، تنبيهاً الى أن المنافقين يقترحون أن ينزل شيئاً فشيئاً من الحث على القتال ليقولوه ، واذا أمروا بذلك مرة واحدة تماشوا منه وعليه جاء قوله (انا أنزلناه في ليلة مباركة) وقوله تعالى (انا أنزلناه في ليلة القدر) لانه نزل جملة واحدة الى السماء الدنيا ، والنزول بمعنى الهبوط من علو الى اسفل ، والانتقال من مكان الى مكان ، لا يتأتيان في جانب القرآن لانهما يستلزمان الحركة الجسمية والقرآن الكريم ليس كذلك ، اذ هو بالمعنى الشرعي العام يطلق على الكلام المعجز المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو في عرف المتكلمين : يطلق على الصفة القديمة باعتبار تعليقها بالكلمات النفسية القديمة من أول سورة الحمد الى آخر سورة الناس ، ويطلق على تلك الكلمات أيضاً ، وليس شيئاً من هذه المعاني بحسم حتى يهبط من أعلى الى أسفل ، و ينتقل من مكان ويحل في آخر ، لذلك كان وصف القرآن بالنزول وصفاً مجازياً باعتبار المعاني .

(١) (دكتور محمد محمود حجازي) . (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم) دار الكتب الحديثة - القاهرة عام ١٩٧٠ - الطبعة الاولى ص ٧٠ .

وهنا سؤال هو جزء من حملة الغلط الذي اثاره الحاقدون على اعجاز القرآن من القدماء والمحدثين ، ولعله هو السؤال الذي كان وراء أن نخصص هذا الباب الطويل في علوم القرآن لتؤكد به ونقرر على ضوء ما انتهى اليه علماء الاسلام وهو ان القرآن الكريم ليس كغيره من الكتب التي سبقته بل ظل كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك حتى يكون حكمه على التراث الاسرائيلي وعلى غيره هو الحكم الذي لا راد له وقوله هو القول الفصل الذي لا معقب له ، وأعني بذلك السؤال الذي كان وراء ما قصدنا اليه من تخصيص هذا الباب الدراسي لعلوم القرآن والذي كان وراء كثير من المغالطات والغلط الذي اثاره الحاقدون على كتاب ربنا وأعني بهذا السؤال ، ذلك الاستفهام المغالط والاثم وهو : ما دور الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في صنع المادة القرآنية واذا جاز أن نصوغ السؤال بلغة أكرم وبتعبير أفضل فمن الممكن أن يكون السؤال على الوجه التالي : هل نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه ؟ أم بمعناه فقط ؟ . وهنا يجب ان نبادر ونقرر بادئ ذي بدء ان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ثبتت عصمته بكل الدلائل والبراهين التاريخية والعلمية التي قدمها للمعاندين والكافرين آية وبرهاناً على صدق وعصمة وقداسة الوحي الالهي في كتاب الله تعالى ، ولسنا في معرض الذي يتناول براهين عصمة القرآن الكريم بالتفصيل ، فيما كتبه علماء علوم القرآن في هذا الموضوع ما يكفي ، وما أشرنا اليه في الصفحات الماضية ما قد يغني هنا ، لكننا أردنا بهذه الإشارة أن نزول القرآن الكريم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه بواسطة الروح الامين جبريل قد ثبت بالتواتر الذي لا يقبل جدلاً ولا يشك فيه للحظة الا عقل وقد تعطل وضل ورب العزة يقرر ببرهان قاطع ان القرآن الكريم كلامه الذي يتلى ويسمع حيث يقول سبحانه في سورة الجاثية : (ويل لكل آفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى

عليه ثم يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها) فايات الله التي تتلى لا يمكن لعاقل أن يتصور أنها معاني ألفاظها ودلالاتها من صنع بشر .

ورب العالمين يقول في سورة التوبة ، وهو يخاطب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم بشأن وضع قاعدة من قواعد الحرب الاسلامية : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) ولا يمكن لعاقل أيضاً أن يتصور أن (كلام الله) الذي يسمع وفي الوقت نفسه يسمعه كافر يمكن ان يكون المعنى من عند الله واللفظ من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يكون المعنى من عند الله تعالى واللفظ من عند جبريل الامين وهو ملك ولغته — الله اعلم — ليست بالقطع هي اللغة العربية فيكون حينئذ لو صاغ المعنى الذي القاه الله سبحانه اليه لينقله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغته العربية في حاجة الى معجزة ، يخلقها الله تعالى في جبريل ليوحى الى الرسول المعاني التي تلقاها من ربه بلغة عربية ، أو أن يكون الله تعالى قد أعطاه أي جبريل قدرة تعلم اللغة العربية ، وفي هذا ما فيه من حجب النبي صلى الله عليه وسلم وتشريفه باصطفاء الله له في تلقي القرآن الكريم بلفظه ومعناه من ربه تعالى ما يجعل منزلة ومكانة جبريل من الله تعالى أفضل كثيراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما لا يساعد القرآن الكريم على تصويره أو فهمه وبالتالي قبوله ، ورب العزة يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم في سورة النمل : (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) فاذا كانت هذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن القرآن يتلقاه الرسول من لدن حكيم عليم ، فكيف يتصور أنه بالمعنى دون اللفظ ، ثم واذا كان الامر كذلك أي أنه كان صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن بصياغة جبريل ، أو بالمعنى الذي يلقيه اليه من الله ثم يتولى هو صلى الله عليه وسلم أمر صياغته ، فلم كل هذا الذي كان الرسول يتعرض له في حالة تلقي الوحي ، ولم كانت عجلة الرسول وحرصه الشديد على أن

يحفظ ما يلقي اليه ، ثم يقوم بتحفيظه لأصحابه وتدوينه في سجلات ، رب العزة يحسم هذه القضية فيما يقوله للمصطفى صلى الله عليه وسلم في سورة القيامة : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه) أليس في هذه الآية وحدها أكبر برهان من الله تعالى على ان جمع القرآن في قلب النبي وقراءته على لسانه ، انما كانت تتم بارادة الله القائل لنبيه : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه) .

هذا .. ويسجل القرآن الكريم واقعة جرت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مجموعة من الكافرين ، دخلوا في مراوغة ملتوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كشفت الله بها في برهان قاطع على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أي دور في صياغة اللفظ القرآني ولم يكن صلى الله عليه وسلم يملك أن يتصرف في النص الذي أوحاه الله اليه ، يقول تعالى في سورة يونس : (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قد ما يكون لي أن ابدل من تلقاء نفسي ، ان اتبع الا ما يوحى الي) . وفي هذه الآية الكريمة ما يقطع وباليقين بان النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من أمر اللفظ القرآني تبديلاً أو تعديلاً أو تغييراً واذا كان كذلك فهو باليقين لم يكن له صلى الله عليه وسلم أي دور في صياغة اللفظ القرآني بل هو كما قال عنه ربه في سورة النمل : (وانك لتلقي القرآن من لدن حكيم عليم) .

هذا .. ومما يجدر ذكره هنا في التدليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له أمام النص القرآني الذي أوحى اليه أي دور من حيث صياغة اللفظ ونصه تلك الواقعة الشهيرة في غزوة (تبوك) حين استأذن جماعة من

المسلمين في التخلف عن الغزوة وأبدوا أعذاراً ، وكان منهم من انتحل هذه الاعذار من المنافقين ، وأذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فنزل للقرآن معاتباً له على ما ذهب اليه : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ولو كان هذا العتاب صادراً عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له خطأ رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسي (١) .

ومن الدلائل التي ارتبطت بتاريخ القرآن الكريم ، وتؤكد أن القرآن كتاب تميز بهذه الخاصية الفريدة وهي أنه بلفظه ومعناه كلام رب العالمين وأنه بالهيئة التي هو عليها لا دخل لبشر فيها ، وهذا هو سر تلك المناعة العظيمة التي وقف بها القرآن الكريم طوال كل هذا التاريخ منذ أنزله الله على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعصمته وقديسته في وجه كل جهود العدوان التي ابتلى بها المسلمون ، ولم تنل منه أطماع وأحقاد أعداء الاسلام ، وحين رصد أعداء الاسلام في القديم والحديث الاموال وانشأوا المؤسسات والمدارس وزجوا برجال منهم في قلب المجتمع الاسلامي بهدف العبث بكتاب الله أو النيل منه أو التشكيك في وحدة موضوعه وعصمة نصه وطهارة مضمونه لم تنل منه كل هذه الجهود شيئاً ، ولم يتعرض لما تعرضت له أسفار وكتب الاديان السابقة بل ظل كما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى هيئته دون تعديل أو تعديل أو حذف أو اضافة ، وكيف يتعرض لمثل هذا ورب العزة قد حدد مستقبل هذا الكتاب الكريم في الحياة ما دامت الحياة والى أن يقوم

(١) (مناع القطان) في كتابه (مباحث في علوم القرآن) مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة

الرابعة سنة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م صفحة ٤٢ .

الناس لرب العالمين حيث قال عنه سبحانه في محكم الذكر « انا نحن نزلنا الذكر
وانا له الحافظون » .

ومن هنا فيصبح حكمه هو الحكم وقوله هو القول على كل ما سبقه من
كتب وما يمكن أن يكون متصلاً بالعقيدة أو بالايمان .

* * *

the first thing I did was to go to the bank and
get some money.

Then I went to the office and saw the
manager. He told me that the money was
all right.

الفهرس

صفحة

المقدمة ١٥

الباب الاول ١٦

الوحي الالهي في القرآن الكريم ١١

الفصل الاول

هذا القرآن ١٣

القرآن الكريم في لغة العرب ١٤

الجو القرآني ١٦

الفصل الثاني

كيف نزل القرآن الكريم وحياً الهياً ١٨

وحي القرآن الكريم ٢١

ظاهرة الوحي ٢٢

مراحل نزول القرآن الكريم ٢٥

الفصل الثالث

- ٢٨ اللغة التي نزل بها القرآن الكريم
٣١ خصائص البيان القرآني

الفصل الرابع

- ٤١ الاهتمام الاسلامي بالقرآن الكريم
٤٥ خصائص الاسلوب القرآني
٤٨ المكّي والمدني في القرآن الكريم

الفصل الخامس

- ٥٢ معنى جمع القرآن
٦١ ما الذي حدث بالقرآن في عهد الراشدين

الفصل السادس

- ٦٦ قصة المصحف والقراءات السبع
٦٨ لماذا كان مصحف عثمان
٧٠ ما الذي حدث بالقرآن الكريم
٧٥ لماذا سمي القرآن قرآناً
٨١ حملات عدوانية ضد القرآن الكريم

الفصل السابع

٨٧

خصائص النص القرآني

١٠٦

الحكم بالمتشابه في القرآن الكريم

الفصل الثامن

١٢٠

معنى النسخ في القرآن الكريم

١٢٣

هل يجوز النسخ في القرآن

١٢٥

ما لا يجوز ان ينسخ

١٣١

دور رسول الله في المادة القرآنية

مؤلفات الدكتور صابر طعيمة

التاريخ اليهودي العام ١ - ٢
العقيدة والفطرة في الاسلام
بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم
المعرفة في منهج القرآن الكريم
تحديات امام العروبة والاسلام
الاسلام ومشكلات السياسة
الماسونية ذلك العالم المجهول
هذا القرآن
الاسلام يقيناً لا تلقيناً
الشريعة الاسلامية في عصر العالم
التراث الاسرائيلي في العهد القديم
العقل واليقين في الاسلام
الدين الحق وبنو اسرائيل